الدكتور عبد الوهاب عزام

مهد العرب

اقرأ

٤٠

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٠ — مارس ١٩٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمات قصدتُ بها إلى التعريف بالجزيرة العظيمة ، جزيرة العرب ؛ فبينتُ مجملاً وصفها الطبيعى ، وأقسامها وأعلام بلدانها ومحالّها ؛ ووصلت هذا بطرف مما يتصل به من الأشعار والأخبار والأساطير فى غير توسعٍ ولا تعمق ، وذكرتُ فيها أمهات القبائل ومواطنها .

وهى مقدمة للتعريف بالجزيرة العربية ، يكتفى بها من يكفيه الإلمام بأوصافها ، ويبتدئ بها من يريد المزيد .

ولا بد من هذه المقدمة لطلبة الأدب العربى عامة ، والجاهلى خاصة ؛ فكثير من الشعر والنثر لا يدرك معناه إلا بمعرفة ما يتصل به من مكان أو قبيلة أو حيوان أو قصة ، أو بمعرفة طبيعة بلاد العرب إجمالا .

وقد نالت هذه الجزيرة من أسلافنا عناية مشكورة ، فكتبوا فى أوصافها وأخبارها ، وبقينا عالة عليهم ولم نقتفِ آثارهم . فرجعنا إلى الكتب القديمة التى تركوها لنا أو أخذنا عن الأوربيين ، ونحن أولى بمعرفة أرضنا ، وأقدر على التجوال فيها ومخالطة أهلها ، وأعرف بلغتها وتاريخها وعاداتها .

على أن العناية بالكتابة عن الجزيرة قد ظهرت فى هذا العصر ، فأخرج سعادة الشيخ حافظ وهبة كتابه « جزيرة العرب » ، وسعادة فؤاد حمزة بك كتابه « قلب جزيرة العرب » ، وهما بداية مبشرة باطّراد البحث والاستقصاء فى الدرس إن شاء الله .

وقد اقترحت ، وما زلت أقترح ، على جامعتنا جامعة فؤاد الأول أن تبعث إلى الجزيرة بعثا فيه من المؤرخين والأدباء والجغرافيين والمهندسين ، ليضعوا مصوّرات للجزيرة ، ويبيّنوا المواضع التى ذكرت فى التاريخ والأدب ، ويحققوا أمكنة الوقائع التاريخية ، ومنازل القبائل القديمة ، وهلم جرا .

وهذا ميسور ، وقد عم الأمن أرجاء الجزيرة ، ويسّرت الوسائل الحديثة السفر والبحث والاستقراء .

ولعل رجاءنا يتحقق قريبا بعد أن تنبهت الأمم العربية ، ونشأت لهم هذه الجامعة المباركة ، فيكون من أول ما يعنى به مكتب الثقافة فى هذه الجامعة تحقيق هذا الرجاء ، والقيام بهذا الواجب .

والله ييسر لنا كل صعب ، ويهيئ لنا من أمرنا رشدا

عبد الوهاب عزام

١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ هـ

٢٠ من فبراير ١٩٤٦ م

العرب ومواطنهم ولغتهم

تخلد الأمم على وجه الأرض ، وتحيا على مر الدهور ، وتثبت فى صفحات التاريخ ، بأسباب وقوانين . ويختلف حظها من الخلود ومن المجد باختلاف هذه الأسباب المواتية والقوانين السارية ، قوة وضعفا ، وإبطاء وإسراعا ، وضيقا واتساعا . وهى أسباب متصلة متشابكة يؤدى بعضها إلى بعض ويمسك بعضها بعضا . من هذه الأسباب صلاحية الموطن ، والقوة الحسية والمعنوية ، والثبات للحادثات ، والاحتفاظ بالخصائص ، والاعتداد بالنفس والثقة بها وحضارة الأمة وأثرها فى العالم ، وقدرتها على الأخذ والإعطاء فى معترك الأمم ، والمكانةُ بين الناس ، وعِظَم التاريخ على مرّ الدهور .

فأما الوطن فقد منح الله العرب موطنا فسيحا وسطا بين المواطن ، فيّاضا بالخيرات بعيدا من الآفات المدمرة .

موطن العرب جزيرتهم التى ولد فيها تاريخهم ، ثم مثواهم القديم الذى عرفهم فيه التاريخ منذ تحدث عن البشر ، بين هَضْب

إيران وجبال طوروس والبحر الأبيض ، ثم متقلبهم الذى نشرهم فيه الإسلام إلى بحر الظلمات وأواسط إفريقية . وهو موطن شاسع الأرجاء يقع معظمه فى الإقليم المعتدل ، وقليل منه فى الإقليم الحار ، وتجرى فيه ثلاثة من أعظم أنهار العالم : النيل ودجلة والفرات ، وتتقسمه السهول الخصبة والبرارى والصحارى والجبال ، وتمتد سواحله على بحر العرب والبحرين الأحمر والأبيض. هذا الموطن العظيم يكفل الحياة القوية ، والعيشة الغنية ، والثبات على الخطوب ، والبقاء على الزمان . وقد جعل الله مهد العرب جزيرة ممتازة محدودة بالبحار من معظم جهاتها ، فحفظت هذا الجنس القوى بمعزل من تقلب الجماعات، بعيدا من طرق المهاجرات، فبقى يطبع الأجسام القوية والطباع السليمة والفِطَر الخالصة ، ثم يمد بها أجزاء الموطن العربى الكبير كلما نالت الخطوب من أهله أو أترفتهم الحضارة . ما زال يقذف بهم موجة بعد موجة كالنهر العظيم المتدفق من قنن الجبال ، بَعُدَ ينبوعه من الشوائب ، واطّرد مجراه إلى الغاية المقدرة له ، ونبتت على عِبريه الزروع والأشجار ، وحييت الأمم .

وماتزال جزيرة العرب خلاقة ولّادة فيّاضة ممدّة لأقطار العرب

بالقبيل بعد القبيل . فإن بليت الأمم فهذه الأمة لا تبلى ، وإن أفنت الأقوامَ الحوادثُ فالعرب لا تفنى ، وإن نضب مَعين الأمم فلن يَغيض الدم العربى الخالص ما دامت أنهار الله جارية فى أرض الله ، وما دامت شمسه وهواؤه ينميّان الأجسام ، ويطبعان الأقوام .

ما تزال هذه الجزيرة المحتجزة ببحارها وصحاراها ، المتمنّعة بحزونتها وشدتها ، البعيدة عن سُبُل المشرق والمغرب ، المتأبية على الاختلاط والامتزاج ، تحفظ الجنس العربى خالصا بين حدودها ، وتمد به العرب المهاجرين نقيا قويا يردُّ إليهم ما أوهنت الحضارة من أبدانهم ونفوسهم .

وسيبقى هذا الوطن الأفيح فياضا مدادا يطبع العربىَّ على غرار أرضه وشمسه وهوائه ومائه ، ويربّيه على قوته وشجاعته وفروسيته ثم يمد به إخوته فى أقطار الأرض . فلن يبيد هذا الجنس ولن يهن على مر الزمان .

وكم عرف التاريخ وكم جهل من هجرة بعد هجرة من الجنوب إلى الشمال ، من عرب اليمن وحضرموت وعمان إلى نجد والحجاز فالبلقاء وبادية الشام ، ثم من الجزيرة كلها إلى العراق والشام

ومصر والمغرب والسودان وشرق إفريقية وجزائر المحيط الهندى (بحر العرب)

ولا تزال القبائل البادية فى هذه الأقطار تحفظ سننها ، وتعرف صلتها بمواطنها وأصولها فى الجزيرة وتعتز بهذه الصلة وتحرص على ذكرها وحفظها .

هذا المصنع مصنع البشر لن يزال مددا للعرب وردءا .

وأما الثبات للحوادث الطبيعية والإنسانية ، فما دام هذا الوطن العظيم يعرف بعضه بعضا ويتصل بعضه ببعض ، فستجد كل ناحية فى النواحى الأخرى ما يسعفها بمطالبها إن قحطت ، وما يدرأ عنها الأحداث إن طغت عليها . ومحال أن تعمها كلها الحوادث إلا أن يكون حادث القيامة حين يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما احتفاظ الأمة بخصائصها فعلى قدر ما فى أجسامها وعقولها من قوة ، وعلى قدر ما فيها من اعتداد بالنفس وثقة بها . والعرب من أقوى الأمم أجساما وعقولا وأكثرها أنفة وإباء وعجبا وفخار . والعربى منذ العصور الأولى يغلو فى الاعتداد بنفسه ، ويأبى أن يسويها بالأمم ، ويربأ عن مصاهرتها . وقديما

أبى النعمان أن يزوج كسرى ، وحديثا قال أحد مجاهدى العرب فى طرابلس الغرب وقد عقد صلح بين أهل طرابلس والطليان، وامتنّ هؤلاء على العرب بأن سوّوهم بأنفسهم فى الحقوق . قال هذا العربى المجاهد ، وهو ليس رئيسا ولا زعيما : « واسوأتاه ، أأسوّى أنا بالرومى ! إنه لظلم عظيم » ؛ بل كان من آفات العرب الغلو فى هذه الكبرياء ، فصعب أن ينقادوا ويُسلسوا القياد ، فبهذا الشعور بالعلاء والعظمة جعل العرب يعتزون بأنفسهم ، ويعتازون بخصائصهم ، ويتمسكون بأخلاقهم. وقديما قال شاعرهم :

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وقديما رهن حاجب بن زرارة التميمى قوسه لملك الفرس ضمانا لما التزم من خراج ، وحارب بنو شَيبان الفرس إباء أن يُسلموا سلاح النعمان بعد أن قتله كسرى . وقال أبو تمام يمدح بنى شيبان :

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها وزادت على ما وطّدت من مناقب

فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

والمثُل أكثر من أن تذكر فى هذا المقام، وأبين من أن تبيّن.

إذا أحاطت الأمة القوية أنفسها وخصائصها بأخلاق قوية ،

كفلت دفع الخطوب عن حوزتها ؛ ولا سيما الأخلاق الإنسانية العزيزة التى تأبى للأمة أن تخضع فتذل فتفنى . والعربى فى جاهليته وإسلامه أبىّ حر ، يأنف أن يَستعبد أو يُستعبد . وقد أمده الإسلام بفضائل سيَّرته على وجه الأرض كالنجم لا يضل ولا يكلّ ، وجعلته قانونا من قوانين الله يسير إلى غايته مسير الشمس والقمر فى حُبُك السماء

وكلما أخرجت الأمة من عمل أيديها ، وأظهرت من نتاج عقولها ، ونشرت من ثمرات أخلاقها وآدابها ، زادتها صناعتها وعلومها وآدابها رسوخا على الأرض ، وثباتا على مجرى الخطوب . ولا يعرف التاريخ أمة أثرت فى وجه الأرض ، وشادت فى الآفاق وفى الأنفس أكثر من العرب ، لا يعرف التاريخ أمة حمَّلته أكثر مما حمَّلوا ، أو جمَّلته أحسن مما جمَّلوا ، أو سيطرت عليه أعظم مما سيطروا ، أو سطَّرت على صفحاته أجل مما سطَّروا . فإذا تركنا التاريخ القديم من معين وسبأ وحمير ومن بابل وأشور ، فهل يحدثنا التاريخ عن أمة طلعت على العالم بمثل ما طلع العرب ؟ همة ذللت المشرق والمغرب فى سنين ، ونية تريد الخير للناس أجمعين ، وعدلا يسوى بين الجبارين والمستضعفين ، بل يمحو

من الأرض كل جبار ومستضعف ، ويقف الناس جميعا إخوة على سُنن من العدل المطلق والمساواة الكاملة والأخوّة الشاملة .

هل يعرف التاريخ أمة جمعت فى سلطانها ما جمع العرب من أمم وأقطار ، ثم آخت بينهم وحفزتهم إلى الفضائل والآداب والعلوم والصناعات ، فإذا معظم العالم المتحضر متعاون على نسج حضارة واحدة عظيمة ، كل أمة قدر مواهبها وقواها . فوصلت ما انقطع من سَير الحضارة ، وقطعت ما اتصل من سَير الجبروت والاستعباد ، والشر والفساد . وما فعلوا هذا كله إلا ابتغاء وجه الله ، وقصدا إلى إصلاح الناس ، وعمران الأرض . وقد ربط التاريخ ذكر العرب وتاريخ العرب بهذه المآثر وتلك الفضائل والأخلاق والمكارم ، وضمن لهم الخلود ما بقى للناس سيرة فى الفضائل والمعالى .

لا أقول إن الإسلام صُنع العرب ، فالإسلام صنع الله ؛ ولكن العرب كانوا أول من حُمّلوا هذه الأمانة فحملوها ، ودُعوا إلى هذه المعالى ففقهوها ، وكلّفوا نشرها فنشروها ، فكأنما خلقت لهم أو خلقوا لها ، وكانوا أحق بها وأهلها ؛ وللأمم الإسلامية الأخرى بعد هذا فضل لا ينكر .

ثم أدب العرب هل يعرف العالم أعظم منه سعة رقعة ، وطول مدة ، وجمالا وجلالا ؟

إذا ثبتت الأمم بنيانها على كر العصور بالسير المجيدة ، والمثل العالية ، فعند العرب سير رجف بها الزمان ، وأقر لها الحدثان . وإن مكنت الأمم لأنفسها بالصناعات والعلوم والآداب فعند العرب ما يكفل لهم التمكن فى الأرض والخلود فى سجل التاريخ . وحسب المجادل أن يسير فكره بين هضب إيران وبحر الظلمات وجبال البرانس وغابات إفريقية ، ويعبر التاريخ فى هذه المواطن كلها أربعة عشر قرنا ليرى مجد العرب ، ويبصر حجة العرب .

ولا نقول إن العرب خلقوا ولم يقلدوا ، وابتدعوا ولم يتبعوا ، وأعطوا ولم يأخذوا ، وأعاروا ولم يستعيروا ؛ ولكنا نقول إنهم أحسنوا الخلق والتقليد ، وأجادوا الابتداع والاتباع ، والأخذ والعطاء ، والإعارة والاستعارة . والأمم تدل على فضلها بالأخذ كما تدل عليه بالعطاء ، وتثبت حياتها بالمحاكاة كما تثبتها بالخلق . وإنما حياة الأحياء على قدر ما تؤثر فى غيرها وتتأثر . الذى لا يأخذ ولا يعطى جماد ، والنبات يأخذ ويعطى قليلا . وانظر بعد هذا

الحيوان الأعجم والإنسان ، ثم اعتبر هذا فى تاريخ الأمم يصح الاعتبار ، ويطَّرد القياس .

تخلد الأمم بأفعالها وآثارها ، ويقينها فى أنفسها ، ويزيدها مكانة وتمكينا فى الخلود أن يزيد على مر العصور مجدها ، وتعظم على كر الدهور بين الأمم مكانتها ، حتى تعلو على أحداث الزمان ، ومطامع الإنسان ، فتقر لها الأمم بالفضل ، وتخلّى لها سبيلها فى الحياة . وللعرب من هذا كله نصيب موفور ، وسعى بين الأمم مشكور ، لا ينكره إلا من ضل به الهوى ، أو جار به الحسد .

وهم جديرون اليوم بتاريخهم ، حقيقون بسيرتهم . ولن يكونوا إلا كما كانوا من قبل ، دُعاةَ حرية وأخوّة ، وهُداة مدنية وعمران ، وأئمة أخلاق وآداب ، وأنصار فضيلة وحق . ولن يكون نهوضهم اليوم إلا خيرا للبشر ، وسلاما للناس أجمعين .

ولهذه الأمة الكريمة الخالدة لغة كريمة خالدة ، أنضجها الزمان المتطاول فى البقاع الشاسعة من الجزيرة ، وأخرجتها الفطرة السليمة والإحساس المرهَف والإدراك النافذ لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصوّر ألفاظها مشاهدَ الطبيعة ، وتمثّل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد تتجلى معانيها فى أجراس الألفاظ ، وتتمثل فى

نبرات الحروف . كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبَرات الحياة ، فالمعانى المحسَّة والمعقولة مبيّنة فى ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة ، فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه، إدراكا للفرق الدقيق بينهما. فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم . وإذا دلت اللغات على صفات الوجه الإنسانى مثلا بكلمات مركبة لكل صفة ، دلت العربية على كل حِلية فى الإنسان وكل صفة فى عينيه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة . وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الإحساس الحاد الدقيق المتمثل فى المفردات يتجلى فى التركيب مدهشا . فكل كلمة لها فى الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها، فتعطَى أو تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة . فالكلمة الأصيلة لها أقوى الأصوات وهو الضم ، والأخريات لها الفتح والجر . وما أرى هذا إلا ضربا من الحياة فى الألفاظ والتركيب ، يبين عن أدق الإحساس وألطفه .

وإذا اشتملت اللغات على كلمات هى مادتها ، ففى اللغة العربية

مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة ، فيها مادة ووزن . نخذ المادة أو اخلقها أو استعرها من لغة أخرى، ثم صبها فى قالب من قوالب الأسماء والأفعال، وصوِّرها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء . فلغتنا تدل بالمادة والوزن ، وبالصيغة والهيئة . فمن سمع فاعلا أو مفعولا أدرك أن هذا الوزن فى حركاته وسكناته له معنى يلازمه فى المواد كلها . وبهذا امتازت اللغة واستبانت خصائصها ، حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبي . وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية ، صحيحة قوية .

قيل إن لغتنا صعبة بهذه المفردات و بهذه التراكيب والأوزان، وإنها تكاد تأبى على دارسها وتُعجز طالبها . وهذا حق لا ندفعه ، وإن عدّ عيبا فلا ننكره . ولكنه ليس من نقصان فى خلقها ، أو اختلال فى بنيتها ، أو عجز فى موادّها وأوزانها ؛ ولكنه نتيجة التطور الكامل والنمو التام ، فأدنى الأشياء فى هذا العالم أيسرها وأقلها تركيبا . والكمال يصحبه التركيب والتفصيل والإشكال والإعضال . اعتبر هذا فى النبات والحيوان ، وفى الحيوان ذى

الخلية الواحدة والإنسان ، ثم انظر المراتب بينهما . واعتبر هذا فى البداوة والحضارة ، وفى أنواع الحضارات ، تجد النقص بساطة ويُسرا ، والكمال تركيبا وصعوبة . الكمال فى هذا العالم لا ينال إلا بتطور تلده الأحقاب بعد الأحقاب ، وتنوء به العزائم بعد العزائم ، فلغتنا صعبة ، ولكنها كاملة دقيقة مواتية ، حية حساسة، موسيقية متلائمة .

وقد امتحنت هذه اللغةَ الحضارةُ الواسعة ، واختبرها التاريخ الطويل، فلم تعجز ولم تعيَ ولم تضِق بكل ما أدركه الإنسان من علم ، وثقفه من صناعة ؛ بل وسعت حضارة القرون المتطاولة ، والأمم المختلفة ، غير كارهة ولا مكرَهة .

وقد أراد الله لها أن تكون لغة كتابه، وترجمان وحيه ، و بلاغ رسالته ، فاشتملت على العالم الحسى والعقلى مصورا فى كلمات وآيات ، وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للإنسان عقل وقلب، وما استقام له إحساس وإدراك .

وتقلب الزمن ، وتوالت المحن ، وثارت الفتن وهى ثابتة ناضرة رائعة ، ثبات قوانين الله وروعة كواكبه . خمسة عشر قرنا محت لغات وخلقت لغات و بدلت لغات ، وحرفت لغات، والعربية هى

العربية ، لم تُمح ولم تُغير ولم تبدل . ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق هذه العربية لغة العرب وحدهم بل ، ثقفتها الأمم الأخرى ، وأولتها من الحفاوة والعناية أكثر مما أولت لغاتها أحيانا ، فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ، ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق . ولا تزال على تبدل الأحوال وتوالى الغِيَر لغة أدب وعلم فى الأمم الإسلامية غير العربية ، وما تزال لغات هذه الأمم مترَعة بألفاظها ، وما تزال تستمد العربية .

وقد حوت على مر العصور أدبا لا تحويه لغة أخرى ، أدبا موطنه ما بين الصين إلى بحر الظلمات ، وزمانه أربعة عشر قرنا ، ولا نعرف فى آداب العالم قديمها وحديثها أدبا اتسعت به المواطن هذا الاتساع ، وامتدت به الأعصار هذا الامتداد .

فالعربية بأهلها وموطنها وخصائصها وآدابها وتاريخها ، العربية بقرآنها ، خالدة باقية على الخطوب والعصور ، لغة دين وعلم وأدب وحضارة وإنسانية . فهل تنصرها همم أبنائها وتستجيب لها عزائمهم ؟

جزيرة العرب

عُرفت بلاد العرب منذ الجاهلية باسم جزيرة العرب . وقد روى فى بعض الأحاديث النبوية أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب .

وما أحسب العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام نظروا إلى المعنى الاصطلاحى التام لكلمة جزيرة ، بل أرادوا الأرض يدور الماء على نواحٍ منها .

قال المقدسى إن العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة ، ونجد تصديق هذا فى تسميتهم جزيرة الأندلس ، وجزيرة أقُور ، بين الفرات ودجلة ، وجزيرة ابن عمر هناك ، والجزيرة الخضراء فى الأندلس .

ثم أراد جغرافيو العرب من بعدُ أن يفسروا هذا الاسم بالمعنى الخاص للجزيرة فى الاصطلاح الجغرافى ، فقالوا إنما سميت جزيرة لإحاطة المياه بها . ونقل صاحب لسان العرب عن التهذيب :

« سميت جزيرة لأن البحرين بحر فارس وبحر السودان أحاطا بناحيتيها ؛ وأحاط بجانب الشمال دجلة والفرات » .

وأجمعُ ما قيل فى هذا ما رواه الهَمْدانى فى كتابه ، صفة جزيرة العرب :

« وإنما سميت جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها ، فصاروا منها فى مثل الجزيرة من جزائر البحر. وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم، فظهر بناحية قِنّسرين، ثم انحطّ على أطراف الجزيرة وسواد العراق ، حتى دفع فى البحر فى ناحية البصرة والأُبُلّة ، وامتد إلى عبّادان . وأخذ البحر فى ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفا عليها ، فأتى منها على سَفَوان وكاظمة إلى القطيف وهَجَر وأسياف البحرين وقَطَر وعُمان والشِحر . ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أَبْيَن وعَدن ، وانصبّ مغربا نصبا إلى دَهْلَك . واستطال ذلك العنق فطعن فى تهائم اليمن إلى بلاد فَرَسان وحَكَم والأشعريّين وعكّ . ومضى إلى جُدّة ساحل مكة ، والجار ساحل المدينة ، ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها

وأقبل النيل فى غربىّ هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر معه ، حتى دفع فى بحر مصر والشام . ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمرّ بعسقلان

وسواحلها وأتى على صور ساحل الأُردنّ ، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق. ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات ، منحطّا على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق . »

وقد حاول هذا الواصف أن يُحكم الدائرة فأدخل النيل فى المياه المحيطة بالجزيرة ولم يُرد أن يغفل المسافة بين خليج السويس وبحر الروم الذى سماه بحر مصر والشام ، فاستعان بفرع النيل الشرقى على إحكام هذه الدائرة من المياه المحيطة بالجزيرة .

وهذا التحديد يدخل بلاد الشام كلها والبادية التى بين الشام والعراق وبادية سيناء فى جزيرة العرب . والحد الشمالى يختلف فيه الجغرافيون ، منهم من يجعل الحد الشمالى صحراء النفود ، فيخرجون بادية الشام من الجزيرة ، ومن هؤلاء المقدسى .

والتحديد المساير لطبيعة الأرض يدخل بادية الشام وسيناء فى الجزيرة. نحدّها على هذا من الشرق بحر عمان وخليج البصرة (خليج فارس) ونهر الفرات ، ومن الجنوب بحر العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر وقناة السويس. ومن الشمال البحر الأبيض وخط يبتدئ من العريش مسايرا حدود فلسطين الجنوبية

ومنعطفا إلى الشمال مع حدود الشام الشرقية حتى يقارب تدمر، ثم ييمم الشرق إلى الفرات. ثم يسير صوب الجنوب الشرقى إلى ملتقى شط العرب وخليج البصرة.

وأبعاد الجزيرة من بُر سَعيد إلى عدن	١٥٠٠	ميل
ومن باب المندب إلى رأس الحد فى عمان	١٣٠٠	«
ومن بُر سعيد إلى الفرات	٦٠٠	«

ومتوسط عرضها من الشرق إلى الغرب ٧٠٠ ميل ومتوسط طولها ١٢٠٠ ميل ومساحتها ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ميل، ثلثها صحارى رملية.

طبيعة الجزيرة :

والجزيرة فى جملتها نجد أقصى ارتفاعه فى الجنوب والغرب، وانحداره نحو الشمال والشرق إلى وادى الفرات وساحل الخليج الفارسى.

والسفح الغربى يرتفع من البحر صاعدا حتى يبلغ علوا يختلف من أربعة آلاف قدم إلى ثمانية آلاف.

وبينه وبين البحر ساحل ضيق لا يتجاوز عرضه ثلاثين ميلا وهى قاحلة فى كثير من جهاتها قليلة المياه ليس بها مجرى ماء دائم. ولا تنهمر عليها أمطار غزيرة كالتى تسقط على جبال

الحبشة لقلة الجبال بها ، وأن جبالها لا تعلو إلى مستوى الجبال العالية فى الأقطار الأخرى .

وليس بها بحيرات ولا غابات كثيفة .

ومجارى المياه فيها أودية يسيل أكثرها عقب المطر ثم يغيض ويترك المطر بها غدرانا ورياضا وقيعانا وأحساء وعيونا .

فالغُدران جمع غدير وهو بركة يملؤها المطر .

والرياض جمع روضة وهى مجتمع ماء فى مطمئن من الأرض ، وربما تبلغ سعة الروضة فى الجزيرة ميلا فى ميل . وكثيرا ما ينبت عليها ضروب من العشب والبقول لا يسرع إليها الذبول .

وإذا كثر عشب الروضة والتف فهى حديقة .

وقد عدّ ياقوت من رياض العرب المعروفة زهاء مائة وأربعين. وقال : « والرياض المجهولة كثيرة جدا إنما نذكر ههنا الأعلام منها وما أضيف إلى قوم أو موضع تجاوره ، أو واد أو رجل بعينه » .

والقيعان جمع قاع وهى أرض واسعة مستوية يستقر بها الماء أحيانا عقب المطر .

والأحساء جمع حِسى وهو حفرة ينكشف فيها الرمل عن ماء

تسرب فيه إلى أرض صلبة تمنعه أن يغيض فى الأرض ؛ وسيأتى ذكرها فى بلاد الأحساء

الرياح والمطر :

أكثر الرياح هبوبا فى الشمال الريح الغربية ، وعلى السواحل الجنوبية الريح الشرقية .

والصبا وهى ريح الشرق محمودة جدا فى نجد وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، وريح الشمال فى الوسط والشمال باردة جدا . وقد تمدح العرب بالجود حين تهب هذه الريح :

لقد علم الضيف والمُرْملون   إذا اغبرّ أفق وهبّت شمالا
بأنك ربيع وغيث مَرِيع   وأنك هناك تكون الثمالا

وتهب فى الصيف السموم . وهى ريح شديدة الحر مُهلكة .

وقد أكثر العرب من تسمية الرياح ، بين الرُخاء والعاصف ، والهوجاء . وسموا الشمال والجنوب والصبا والدبور والريح النكباء ، وهى التى تهب بين مَهبّ ريحين أصليتين ، كالتى تهب بين الصبا والجنوب مثلا .

وقالوا للريح التى لا تثبت على وجهة الريح المتذائبة ، كأنها تفعل معهم فعل الذئب ، تأتيهم من جهات مختلفة .

ويضيق المجال عن توسعة الكلام عن الرياح وأثرها فى معيشة العرب، وذكرها فى كلامهم.

وأمّا المطر فهو حياة البادية وفى انقطاعه هلاكها. من المطر تجرى الأودية وتمتلئ الغدران، فيشربون ويسقون حيوانهم، ومن المطر ينبت المرعى للحيوان. فإذا حُبس المطر فى مكان انتجعوا مكانا يلتمسون مواقع القَطْر، فإذا عم القحط هلك الناس أو أشرفوا.

ومن أجل ذلك سمى المطر رحمة وغيثا. وعنى العرب بمعرفة الرياح الممطرة والرياح العقيمة، وعرفوا أوصاف الغمام الممطر والغمام الجَهام، وأفتنوا فى تسمية السحب باختلاف ألوانها وأشكالها، وعدّدوا أسماء المطر باختلاف مقداره ومدّته، فقالوا الرذاذ والطش والطل والوابل والديمة وهكذا.

وللعرب فى المطر وأوصافه وأخباره شعر كثير ونثر.

ويغزر المطر على جبال اليمن والجبل الأخضر فى عُمان. وأغزر أمطار اليمن ما ينزل على الحافة الغربية ويمتد مائة ميل إلى الشرق ويقل كلما اتجه إلى الشرق. والمطر الجَوْد هناك يكفى لزراعة الصيف ولإمداد الجداول الدائمة الجريان التى تروى

زرع الشتاء . وربما يستمر المطر شهرين فى الجهات العالية مثل جهات صنعاء . وينزل فى تهامة اليمن مطر فى الشتاء أحيانا .

وفى شمالى الجزيرة ووسطها ينزل المطر فى الشتاء بين تشرين الأول ونيسان (أكتوبر وأبريل) وهو قليل غير موقوت ، وينقطع بعض السنين ، وهى السنوات الشُّهْب . وهذه السنوات تعد مصائب ، فيقال أصابتهم سنة . وفى القرآن الكريم : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات . » وفى بعض أرجاء نجد ينزل المطر فى ميعاد معلوم كل سنة .

وفى الطائف يهطل المطر فى أواخر آب (أغسطس) ويدوم شهرا أو شهرا ونصفا وكأن هذا منتهى الرياح الموسمية التى تهب من الجنوب الغربى ، وتمطر على اليمن من حزيران إلى أيلول (يونيه إلى سبتمبر) .

وينزل البرَد على الحِرار وجبال تهامة فى الشمال . وينزل أحيانا فى صحراء النفود ، وعلى الجبل الأخضر بعمان . وهو نادر فى جبال اليمن .

الزرع والشجر

جزيرة العرب ليس بها أنهار . ومطرها لا يُروِى غُلّتها، فزرعها قليل لا يفى بحاجات أهلها .

تزرع الذرة فى جهات قليلة . والشعير كثير فى أرجاء مختلفة ، والقمح فى اليمن واليمامة وبعض الواحات ، وهو فى الجملة قليل .

ويزرع الأرز فى عُمان والأحساء

والقتّ ينبت فى البادية ، ويسمى اليوم السَمح ، وهو يشبه الدخن المعروف فى السودان ، ودقيقه أجود من دقيق الشعير .

ويطحن الناس حبّ الحنظل أيام الجدب

والكرْم فى جهات كثيرة مثل المدينة المنورة والطائف. والموز والتفاح والرمان والبرتقال فى جهات قليلة

وأعظم ثمار الجزيرة التمر . والنخل فى عمان واليمامة والحجاز كثير، ومما يدل على كثرة التمر بالقياس إلى القمح أن زكاة الفطر قدرت نصف صاع من برّ أو صاع من تمر أو شعير .

وفى المدينة زهاء مئة صنف من التمر

ومن الأشجار البرّية الدوم والسّدر ، والِحنّا ء والضال والسلَم والأثل والغضَى والسَمُرُ .

الحيــوان :

لا حاجة إلى ذكر الأبل والخيل والضأن والمعز فهى كثيرة فى كل الجزيرة ، وعليها عماد معيشتهم . والفرس العربى أجمل خيل العالم وصيته ذائع . وقد فاض الشعر العربى بذكر الأبل فى أسفار العرب وقِراهم ، وتذكر الخيل فى الحرب والصيد وبيان كرمها عليهم وإيثارها بالقوت أحيانا . ومن أجمل ما فى الشعر العربى هذه الألفة المتينة بين الفارس والفرس ، والصحبة الطويلة بين الجمل وصاحبه فى الأسفار البعيدة .

وقارىء الشعر الجاهلى لا يحتاج إلى من يدله على مواضع وصف الأبل والخيل فيه ، فقلما تخلو قصيدة طويلة من وصف الناقة . وفى كثير من القصائد ذكر الخيل ولكنه أقل من وصف الأبل وحسب القارىء أن يقرأ معلقة طرفة أو قصيدة المثقب العبدى الذى يصف فيها ناقته ثم يقول :

إذا ما قمت أرحَلُها بليل ... تأوّهُ آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأتُ لها وضينى ... أهذا دِينه أبدا ودِينى ؟

أكلَّ الدهر حَلٌّ وارتحال أما يُبقى علىَّ وما يقيني

وكثيرا ما يذكر الشاعر كرامة الفرس عليه وتقريبه إلى مجلسه، حتى سميت الخيل المقرَبات ، ويتحدث عن إيثار الفرس باللبن ، ولوم امرأته إياه على هذا كما قال بعضهم :

تلوم على أن أمنح الورد لقحة وما تستوى والورد ساعة تفزع

وأحيانا يذكر لوم امرأته إياه على اقتناء فرس يكلفه ما لا يطيق ، ومطالبتها ببيعه ، كما قال حاجب بن حبيب الأسدى من شعراء المفضليات :

باتت تلوم على ثادق(١) ليُشرَى(٢) فقد جدَّ عصيانها
إلا إن نجواكِ فى ثادق سواء علىَّ وإعلانها
وقالت : أغثنا به إننى أرى الخيل قد ثاب أثمانها
فقلت ألم تعلمى أنه كريم المكبّة مِبْدانها(٣)
كُمَيت أُمِرَّ على زفرة طويل القوائم عُريانها
تراه على الخيل ذا جرأة إذا ما تقطع أقرانها
طويل العِنان قليل العِثار خاظى الطريقة(٤) ريّانها

(١) ثادق : اسم فرس (٢) يباع
(٣) أى كريم الصدر ممتلئه (٤) خاظى : سمين والطريقة : المتن

والحمار فى اليمن والحجاز والأحساء، والبدو يأنفون من ركوبه؛ والبقر قليل

ومن الوحش الأسد وللأسد فى اللغة أسماء وأوصاف كثيرة، تدل على ماملأ نفوس العرب من هيبته وخشيته. وقد عدّ الهمدانى فى كتابه «صفة جزيرة العرب» أربع عشرة مأسدة. وقد أضيفت الأسود إلى بعض هذه المآسد فى الشعر العربى، فقيل أسود بيشة وأسود خفّان وأسود الشّرى وأسود ترج. والأسد نادر فى الجزيرة اليوم.

والفهد والنمر معروفان فى الجزيرة. وأما الضبُع فقد كثر حديثهم عنها، وضربوا الأمثال لها ورووا الأساطير.

والذئب نال من عناية الشعراء فى الجاهلية والإسلام مالم ينله وحش آخر إلا الأسد. والقرد فى اليمن.

والغزال فى كل الأرجاء؛ وقد افتنّ الشعر العربى فى وصفه وتشبيه النساء به. ومنه نوع كبير يرى فى النفود اليوم، وهو فى كِبَر الحمار، أبيض له قرون مستقيمة. ويسميه العرب بقر الوحش، والأنثى مهاة. وكم شبه العرب المرأة بالمهاة فى سعة عينها وفى مشيها، كما تحدثوا كثيرا عن الثور الوحشى ووصفوا ما يقع

بينه وبين الصيادين وكلاب الصيد كما فى معلقة لبيد وغيرها.

وحمار الوحش وصفوه كثيرا وشبهوا به الإبل فى سرعتها، واهتموا بصيده، وفصّلوا الكلام فى وقائعه وجعلوه أعظم الصيد. فقالوا كل الصيد فى جوف الفَرا. انظر قصيدة أبى ذؤيب الهُذَلى التى مطلعها:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ثم اقرأ شعر الشماخ بن ضرار تعرف كيف أولع شعراء العرب بوصف هذا الحيوان.

والنعام يعيش فى النفود فى الشمال ووادى الدواسر إلى الجنوب الغربى من نجد. وقد فُتن العرب بسرعته، فوصفوه وشبهوا به الإبل فى سرعتها، كما شبهوها بثور الوحش وحماره. ووصفوا بيضه وشبهوا المرأة به فى بياضه وصفائه. وجاء فى القرآن الكريم: «كأنهن بيض مكنون».

والأوعال فى بلاد اليمن وغيرها. وهى المعز الجبلية. وقد ذكرت فى الشعر كثيراً وجعلت مثلا فى قول الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِلُ

والأرنب كثير فى الجهات كلها.

ومن الطير الحمام والقطا . وقد ردّد ذكر القطا شعراء العرب ، وسموه الكُدْرِىّ للونه . وذكروه فى طيرانه وفى وروده المناهل البعيدة . وقالوا أصدق من قطاة . لأن صوت القطا يحكى اسمه ، فكأنه يدل على نفسه .

والسُّمانَى كثيرة أيضا

ومن الطير الجارحة النسر والصقر والحِدَأة والغراب .

وفى الجزيرة الثعبان والعقرب والورَل والضبّ . وقد ضُرب المثل بالضب فى إلف القفر والصبر على الماء ، وفى عُقَد ذنبه ، فقالوا أعقد من ذنب الضب ، وضربوا الأمثال وحكوا الأساطير عنه .

والجراد كثير جدا يأكله الناس . والنحل لا يتخذ فى الدور كثيرا ولكن يَتخذ البيوت فى الجبال والشجر وقد افتنّ العرب فى تسمية جماعة النحل وذكورها وجنى العسل وآلاته ؛ وهكذا تصور هذا اللغة وتحكيه الأخبار والأشعار . وفى اليمن وحضرموت عسل طيب جدا .

أقسام الجزيرة

قسّم العرب جزيرتهم تقسيما مسايرا لطبيعتها إلى خمسة الأقسام الآتية . وزاد ابن حوقل ثلاثة أصقاع : بادية العراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام .

وهذا ما قاله الجغرافيون فى هذا التقسيم كما رواه الهمْدانى :

« فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التى نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب ، فى أشعارها وأخبارها :

تهامة ، والحجاز ، ونجد، والعَروض ، واليمن .

وذلك أن جبل السَّراة ، وهو أعظم جبال العرب وأذكرها أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادى الشام، فسمته العرب حجازاً ، لأنه حجز بين الغور وهو تِهامة وهو هابط ، و بين نجد وهو ظاهر .

فصار ما خلف ذلك الجبل فى غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعكّ وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عِرق والُجحفة وما صاقبها وغار من أرضها : الغورَ غور تهامة ، وتهامة تجمع ذلك كله .

وصار مادون ذلك الجبل فى شرقيه من صحارى نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها : نجدا ؛ ونجد تجمع ذلك كله.

وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز وما احتجز به فى شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فَيدَ والجبلين إلى المدينة ، وراجعا إلى أرض مَذحِج من تثليث وما دونها حجاز والحجاز يجمع ذلك كله.

وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العَروض . وفيها نجد وغور لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها ؛ والعروض يجمع ذلك كله .

وصار ما خلف تثليث وما قاربها إلى صنعاء ، وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشحر وعمان وما يلى ذلك اليمن . وفيها التهائم والنجد . واليمن تجمع ذلك كله . »

وهذا تقسيم كما يُرى ، يجعل جنوبى الجزيرة كله من اليمن ، والشائع غير هذا .

ويمكن أن تقسم الجزيرة تقسيما طبيعيـا إلى ثلاثة أقسام : الشمال والوسط والجنـوب . فالشمال ما بين شاطىء مدين ورأس الخليج الفارسى وما يتصل به شمالا . وهو صحراء حجرية فى الشمال رملية فى الجنـوب ولكنها بعد المطر تنبت

مراعى واسعة . وأكثر سكان هذا القسم بُداة رُعاة .

والوسط الحجاز ونجد والأحساء . وكثير من جهاته قاحل فيه آبار وغدران . وكثير من بقاعه تجرى فيه أودية كبيرة فتنبت المراعى والزرع والشجر وفيه كثير من القرى والمدن .

وأما القسم الجنوبى ففيه هضبة عسير واليمن فى الغرب، والجبل الأخضر فى الشرق . والهواء فيها معتدل بارتفاعها وقربها من البحر . والأمطار كثيرة والأرض مُغلّة وأكثر الناس حَضَر .

وسيول اليمن تجرى فى أودية دائمة و بعضها يهبط إلى تهامة ، فينبت بها واحات كثيرة فى الغرب والجنوب . ولكن خصب اليمن لا يمتد إلى الشرق طويلا فوراء الهَضْب الصحراء الكبيرة أو الرُبع الخالى .

وفى حضرموت قرى كثيرة غنية .

هذا إجمال تقسيم الجزيرة تقسيما طبيعيا، وفيما يلى تفصيل القول قليلا فى هذه الأقسام .

القسم الشمالى

البادية الشمالية قسمان: الشمالى منها أرض صلبة تسمى اليوم الحَمَاد

وينتهي هذا القسم إلى قرية الجوف (دومة الجندل) جنوبا .

وفى هذا القسم أودية تسيل من الغرب إلى الفرات ، أعظمها وادي حَوران . وفيه كذلك واد كبير يسمى وادى السرحان ، وهو يسيل من جبل حَوْران صوب الجنوب والشرق، حتى ينتهى إلى قرية الجوف . وينبت على جانبيه واحات خصبة .

وفى هذا الجانب طريق السيارات بين دمشق و بغداد اليوم، وهو زهاء ثمانمائة وستين كيلا، تقطعها السيارات فى عشرين ساعة مع الاستراحة . وهى البادية التى اخترقها سيدنا خالد بن الوليد بجيشه فى السنة الثانية عشرة من الهجرة، إذ سار من العراق مددا لجيوش العرب فى الشام ، فرمى بنفسه وجيشه فى بادية لا ماء فيها ، وأتى الروم من مأمنهم وفجئهم بما لم يحتسبوا . وقد قطعها فى خمسة أيام .

وهذه البادية تسمى اليوم بادية الشام . وباديةُ الشام ، على التحقيق ، كانت اسماً للقسم الغربيّ منها . وقسمها الشرقى كان يسمى فى الجنوب بادية العراق أو السماوة ، وفى الشمال بادية الجزيرة أو خُساف .

والسماوة عند العرب أرض مستوية لا حجارة فيها . والسماوة أمكنة متعددة . وقد ذكرت فى شعر المتنبى وغيره .

قال جرير :

صبحت عمان الخيلُ وهى كأنها　　قَطًا هاج من فوق السماوة ناهل

وقال عدى بن الرِقاع يصف الظباء :

فترددن بالسماوة حتى　　كَذَبتهن غُدرُها والنّهاء

وفى خساف يقول الأعشى :

أخلفتنى به قُتيلة ميعا　　دى وكانت للوعد غير كذوب

ظبية من ظباء بطن خُساف　　أم طفل بالجوّ غير ربيب

كنت أوصيتها بألّا تطيعى　　فىّ قول الوشاة والتخبيب

والقسم الثانى من الصحراء الشمالية ، وهو الجنوبى ، يبتدىء من خط ثلاثين من العرض ممتد شطر الجنوب . وهو صحراء تملؤها كثبان من الرمل الأحمر . وهذه الكثبان تسمى اليوم فى لغة البادية بالنفود ، وبها سميت الصحراء .

وهى على قلة مائها أكثر نباتا وأخصب مرعى من القسم الشمالى . وواحة الجوف فى نهاية هذا القسم من جهة الشمال ينتهى إليها وادى السرحان . وفيها زروع كثيرة ، وعلى مقربة منها واحات أخرى صغيرة .

أمراء الحيرة والغساسنة

على حدود بادية الشام فى الشرق والغرب نشأت إمارتان عربيتان ، وقفت إحداهما من دولة الفرس موقف الثانية من دولة الروم ؛ الفرس اتخذوا إمارة الحيرة عونا على حرب الروم ، وسدا بين العراق وغارات الأعراب . وكذلك اتخذ الروم أمراء غسان أعوانا على الفرس ، ووسيلة إلى إخضاع قبائل البادية .

إمارة الحِيرة

الحِيرة مدينة كانت على ثلاث أميال من الكوفة على بحيرة النجف ، وعلى حدود البادية . وكانت فى أرض خصبة ، تسقيها فروع من نهر الفرات تسير إلى البحيرة . وكانت معروفة بجودة الهواء . وكان قصر الخَوَرْنق على نحو ميل منها إلى الشرق ، والسَّدير فى البادية مما يلى الشام .

وكان أهلها منذ القرن الثالث الميلادى ثلاثة أصناف : تَنُوخ ، وهم العرب أصحاب المظالّ وبيوت الشَّعَر ، ينزلون غربى الفرات ؛ والصنف الثانى العِباد ، وهم الذين سكنوا المدينة وابتنوا فيها ، وهم قبائل شتى . والثالث الأحلاف ، وهم الذين نزلوا فيها من غير تنوخ

والعباد . واسم المدينة يدل على أنها كانت مضارب خيام ، فهو كلمة آرامية ، معناها مَضرِب الخيم .

وكان للحيرة أثر فى الجزيرة العربية . كان أهلها يجوبون الأقطار، يتاجرون ويعلّمون القراءة والكتابة ، ويدعون إلى النصرانية . وكان الشعراء يقصدون المناذرة بالمدائح . وكانت الحيرة كذلك واسطة للتقريب بين الفرس والعرب . وأما تاريخها فمضطرب الروايات ؛ ويقال إنه توالى عليها ٢٥ ملكا فى ٦٢٣ سنة ولكن هذا غير صحيح ، فإن الأمراء الذين يذكرون حكموا ما بين أوائل القرن الثالث الميلادى إلى الفتح الإسلامى . وذلك زهاء أربعمائة سنة .

وأول من تأمّر فى هذه النواحى مالك بن فَهم الأزدى ، وخلفه ابنه جَذيمة الأبرش ، صاحب القصة المعروفة مع الزبّاء ملكة الجزيرة . ولما قتل جذيمة خلفه ابن أخته :

عمرو بن عدىّ

وهو أول الأمراء اللخميين آل نصر ، وأول من اتخذ الحِيرة منزلا ، وأول ملك يعدّه أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق . وقد دان لأردشير بن بابك مقيم الدولة الساسانية الفارسية

(٢٢٦ – ٢٤١م) ثم توالى الأمراء من بعد عمرو فكان خامسهم النعمان بن امرىء القيس .

وكان حكمه فى أوائل القرن الخامس الميلادى . وهو النعمان الأعور السائح ، بانى الخورنق والسدير . وكان ملكا عظيما مهيبا شديد الوطأة على العرب . وكان من آثار قوته ومكانته أنه لما اضطرب أمر الفرس بعد موت يَزدجِرد الأول ، واختلف أمرهم على الملك تعصب النعمان لبهرام جور بن يزدجرد ، حتى تسنى له الملك . وكان بهرام نشأ فى كَنَف النعمان بالحيرة .

ويظهر أن النعمان تنصر وتنسك فى آخر عهده .

قال حمزة الأصفهانى فى تاريخه: فلما أتى على الملك النعمان ثلاثون سنة علا مجلسَه على الخورنق ، وأشرف منه على النجف وما يليه من النخل والبساتين والجنان والأنهار مما يلى المغرب ، وعلى الفرات مما يلى المشرق ، فأعجبه ما رأى فى البر من الخضرة والنَور والأنهار الجارية ولِقاط الكمأة ، ورعى الإبل ، وصيد الظباء والأرانب ، وفى الفرات من الملاحين والغواصين وصيادى السمك ، وفى الحيرة من الأموال والخيول ومن يموج فيها من رعيته . ففكر وقال : أىّ دَرَك فى هذا الذى قد ملكته اليوم ويملكه غدا

غيرى ؟ فبعث إلى حُجّابه ، ونحّاهم عن بابه . فلما جَنّ عليه الليل التحف بكساء ، وساح فى الأرض فلم يره أحد . وفيه يقول عدىّ ابن زيد يخاطب النعمان بن المنذر :

وتدبرْ رَبّ الخورنق إذ أشْـــرَفَ يوما وللهدى تفكيرُ
سرّه حاله وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـــطة حىّ إلى الممات يصير ؟

والرابع عشر من أمراء الحيرة كان

المنذر بن امرىء القيس ، وهو المنذر بن ماء السماء . ملك ٣٢ سنة من ٥٢٤ ثم قتله الحارث الأعرج الغسانىُّ يوم عين أُباغ . وبعده استولت كِندة على الحِيرة . وذلك أن الدولة الفارسية اضطرب حبلها بحرب الترك وفتنة مَزْدَك . فاستولى الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المُرار جدّ امرىء القيس الشاعر . فلما اجتمع أمر الفرس لكسرى أنوشروان (٥٢٩ — ٥٧٨ م) ردّ مُلك الحيرة إلى المنذر بن امرىء القيس .

والسادس عشر منهم كان

عمرو بن المنذر — وهو عمرو بن هند . ملك فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ست عشرة سنة . وأمه هند بنت عمرو

ابن حجر عمة أبي امرئ القيس الشاعر . وقد بنت ديرا في الحيرة .

وآخر الأمراء من لخم كان النعمان بن المنذر أبو قابوس — ملك زهاء عشرين سنة ، ثم قتله كسرى برويز سنة ٦٠٢

وهو قاتل عَبيد بن الأبرص الشاعر ، وعَدىّ بن زيد العبادي ، والذي مدحه النابغة الذبياني .

قال حمزة الأصفهاني في تاريخه : ويزعم بعض أهل الأخبار أنه دخل في النصرانية ، وكان عابدَ وثن ، وأن عدىّ بن زيد الذي نصَّره . قالوا وسبب ذلك أنه خرج ذات يوم راكبا ومعه عدى بن زيد فوقف بظهر الحيرة على مقابر مما يلي النهر ، فقال له عدى بن زيد : أبيت اللعن . أتدري ما تقول هذه المقابر ؟ قال : لا . قال إنها تقول :

أيها الركب المخبّون على الأرض المجدّون
مثــل ما أنتم حيينا وكما نحن تكونون

قال له أعد . فقال إنها تقول :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزُّلال
ثم أضحوا لعب الدهر بهم وكذاك الدهر حالا بعد حال

فارعوى وتنصر » .

وقد وقع بينه وبين كسرى أبرويز ، فقتله كسرى ، فثارت حرب ذى قار بين الفرس والعرب . وذلك أن كسرى ولّى أياس بن قبيصة الطائى على الحيرة ، وأمره أن يأتيه بودائع النعمان المقتول ، وكانت عند هانئْ بن مسعود الشيبانى . فأبى بنو شيبان ، وثارت معهم قبائل بكر و بعض القبائل ، وكانت وقائع انتهت بهزيمة الفرس .

وهى الحرب التى أشاد بها شعراء العرب عصورا طويلة . قال أبو تمام فى مدح بنى مزيد من شيبان :

أولاك بنو الأفضال لولا فعالهم ... هلكن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذى قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأيام ليس له عقب
به علمت صُهب الأعاجم أنه ... به أعربت عن ذات أنفسها العُرْب

وقال :

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

و بعد أياس ولى الحيرة ولاة من الفرس ، ثم ملك المنذر ابن النعمان ، وهو الملقب بالمغرور ، وقتل فى حروب الردة بالبحرين ؛ ثم كان الفتح الإسلامى .

الغساسنة

ينسبون إلى الأزد من قبائل اليمن . ويقال إنهم فارقوا ديارهم بعد سيل العرِم ، وانتهى بهم السير إلى ماء اسمه غَسّان بالشام فنسبوا إليه. والروايات مختلفة فى تاريخهم . فحمزة الأصفهانى وأبو الفداء يذكران واحدا وثلاثين أميرا ، والمسعودى وابن قتيبة لا يذكران إلا عشرة . وكذلك يختلف الرواة فى سنى الملوك ونَسَقهم .

ويروى عن تأمرهم بالشام أنهم نزلوا هناك مجاورين الضجاعمة . وهم من ولد سَليح بن عمرو بن حُلوان من قُضاعة ، ورئيس غسان يومئذ ثعلبة بن عمرو ، فطالبهم الضجاعمة بالإتاوة ، فأبوا ، ثم أدّوها كارهين .

ثم أُديل لهم من بعدُ ، فغلبوا الضجاعمة ، وتفردوا بالسلطان ، واحتاج الروم إلى معونتهم فيما بينهم و بين الفرس من حروب ، فحالفوهم على أن يمدهم الروم بأربعين ألفا إذا دهمهم العرب ، وأن يمدوا هم الروم بعشرين ألفا إذا حاربهم الفرس .

فهذا كان مبدأ إمارتهم وثبات سلطانهم؛ فمتى كان ذلك ؟ فى رواية حمزة الأصفهانى وغيره أن الغساسنة حكموا زهاء ٦٠٠

سنة وهذا يقتضى أن تكون إمارتهم بدأت فى القرن الأول الميلادى . وهو غلط بيّن . ويظهر من تاريخهم ومما يرويه مؤرخو الروم ، أن إمارتهم بدأت فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

ولم يكن للغساسنة مدينة يتخذونها دار الملك ، بل كانوا يتنقلون من البلقاء إلى جهات دمشق وتَدْمُرُ ، وكانت أكثر إقامتهم فى الجَوْلان جنوبى دمشق . وكان سلطانهم يمتد على حَوْران والبلقاء ونواح من فِلَسطين ولُبنان . والشعراء يذكرون فى مدحهم الجولان والجابية فى فلسطين ، وجِلّق قربَ دمشق ، ومواضع أخرى . فلينظر شعر حسان والنابغة الذبيانى .

ومن شعر النابغة فيهم القصيدة التى مطلعها :

كِلِينى لهمّ يا أميمةَ ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكبِ

يقول فيها :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الناس والأحلام غير عوازب

على عارفات للطعان عوابس ... بهن كلوم بين دام وجالب

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فُلول من قِراع الكتائب

إذا استُنزلوا عنهن للطعن أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا ... بقوم وإذ أعيت علىّ مذاهبي

وأول من عظم أمره منهم الحارث بن جبلة الملقب بالأعرج والمعروف بابن أبى شَمِر ٥٢٩ — ٥٦٩ وهو الحارث بن جبلة ابن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، وجفنة الجد الذى تنسب إليه الأسرة

ويعرف من أخبار الحارث هذا أن جستنيان قيصر الروم ملّكه سنة ٥٢٩م ، ليحارب المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وجعله رئيس كل القبائل التى بالشام ، ولقبه بأعظم الألقاب فى الدولة الرومية بعد لقب الملك . وكان بينه و بين المنذر عدة وقائع . وأسر المنذر أحد أبناء الحارث وقربه إلى العُزّى سنة ٥٤٤ م . ثم انتصر الحارث على المنذر فى قنسرين وقتل المنذر فى الموقعة . وهو اليوم الذى يعرف فى الروايات العربية باسم يوم حليمة . وذهب الحارث إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣ م ليتفق مع الروم على من يخلفه فى الإمارة . فراع أهل المدينة منظره ، حتى إن الامبراطور جستينوس حينما كبر وخرف كان يخوّف بالحارث . ومات الحارث حوالى سنة ٥٧٠ م فخلفه ابنه :

المنذر بن الحارث

فسار سيرة أبيه فى معونة الروم ومحاربة أمراء الحيرة . وقد

هزم أمير الحيرة قابوس بن المنذر سنة ٥٧٠ فى موقعة يحتمل أنها المعروفة باسم يوم عين أباغ . ثم لم يمده الروم بالمال وكانت بينه و بين الروم ريبة، فمضى ثلاث سنين، ثم احتاج الروم إلى مصالحته حينما أغار الفرس والعرب على سورية ، فأرسل قيصر رسولا ، فحالفه على قبر سرجيوس بالرصافة . ثم دعاه الإمبراطور جُستِنيان بعد سنين إلى القسطنطينية ، ونفاه إلى صقلية .

و بعد موت جستنيان سار المنذر هو واثنان من أبنائه إلى القسطنطينية ، فاحتفى به الأمبراطور ، وأعطاه الإكليل بدل التاج . ثم رجع فأغار على الحيرة وحرقها ، ولكن الروم ارتابوا فى أمره كما ارتابوا فى أبيه من قبل . فلما بنيت كنيسة فى حوّارين ، بين دمشق وتدمُر ، دُعى المنذر ليشهد الاحتفال ، ثم أخذ غدرا إلى القسطنطينية سنة ٥٨٦ م ، وقطعت الوظائف التى كانت تعطى للغساسنة ، فثار بنو المنذر الأربعة يقودهم النعمان أكبرهم ، وأغاروا على أرض الدولة الرومية ، ونهبوا وخربوا ، فكانت حروب أسر فيها النعمان ، وأرسل إلى القسطنطينية كذلك . فعمت الفوضى بادية الشام ، واتخذت القبائل رؤساء من أنفسها ، وانحاز بعضها إلى الفرس.

ولا يعرف أخبار الغساسنة بعد هذا ، ولكن يظهر أن سلطانهم

ضعف حينما استولى الفرس على الشام سنة ٦١٤ م فى عهد كسرى برويز، ولكننا نجد ذكرهم فى وقعة اليرموك وفتوح الشام وفى شعر حسان. فقد بقيت لهم إمارة إلى الفتح الإسلامى. ولعل هرقل أعادهم إلى الإمرة حينما أخرج الفرس من الشام سنة ٦٢٩ وآخرهم جبلة بن الأيهم الذى يقال إنه أسلم ثم تنصر فى عهد عمر ولحق بالروم. وكان الغساسنة أطوع لحضارة الروم ودينهم من المناذرة لحضارة الفرس. وقد تنصروا وتحمسوا فى النصرانية. وقد أراد المنذر حينما ذهب إلى القسطنطينية أن يدعو أبناء مذهبه إلى مجمع ليزيل ما بينهم من خلاف. وكان لهم أثر فى الأدب العربى ومدحهم النابغة وحسان. ولكنه دون أثر أمراء الحيرة فيهم، لأن أمراء الحيرة كانوا أقرب إلى بداوة العرب ودينهم. ويتبين من شعر حسان بعض أبهتهم وترفهم. هذا والروايات العربية متناقضة فى تاريخ أمراء الغساسنة وبيان ملوكهم، كما تقدم. وأقصر الروايات وأجدرها بالثقة ما رواه ابن قتيبة.

وكان للعرب إمارات أخرى كإمارة تدمر فى بادية الشام التى بلغت أوجها فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد؛ وكإمارة النبط فى بطره التى ترعرعت قبل الميلاد.

***

وأما القسم الوسط من الجزيرة فيشمل الحجاز ونجدا وما يتصل بهما شرقا .

الحجاز

مولد الإسلام ، ومبعث النور ، ومصدر الهدى ، تتجه إليه القلوب والأوجه كل حين ، ويملأ كل قلب إليه حنين .

مدرج الإسلام ومرباه ، تُقتفى هنالك خطاه . فى كل مكان أثر مشهور ، وفى كل بقعة قول مأثور . كأن أحجاره ورماله وسهوله وجباله، ألواح فيها سيرة الرسول وأقواله، ومشاهده وأفعاله .

وفيه صدى القرآن ، وآيات الوحى والفرقان . هناك منازل القرآن-ومدارس سُوره ، ومهبط بشائره ونُذُره .

وفى الحجاز كتبت بسملة التاريخ الإسلامى وفاتحته ، وعنوان الحضارة العربية وطُغراؤها . وما تزال الذِكَر المجيدة توحَى من الحجاز ، وما تزال السيَر المجيدة تذكّر به .

وفى الحجاز نشّئت الجماعة الأولى على هَدْى القرآن وآدابه ، ورُشحت لتسيطر على العالم بأحكامه . ورُبىّ خلفاء العالم وولاته

وقوّاده وقضاته ، ليحكموا بعدل الله بين خلقه ، ويقسموا رزق الله بين عياله .

وما يزال الحجاز ولن يزال ، قطبا تتجه إليه القلوب والوجوه اتجاه المغناطيس إلى قطبه ، وموردا تهفو إليه الأفئدة كما تهفو الطير إلى المناهل ، استجابة للدعوة : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النــاس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وفى الحجاز ذكرى الأخلاق العربية ، والشمائل الحجازية . وقصص الشعر ، أقوالا وأفعالا ، وقصائد ووقائع يدوّى بها الشمال حيث بنو عُذرة وجيرانهم ، إلى الجنوب حيث هُذَيل وأوطانهم .

وفتوّة العرب فى المواسم ، وأمثالهم فى المكارم ترددها مجامع الحجيج منذ الجاهلية فى مكة ومِنى وعرفات ، وتُصدّى بها محافل الأسواق فى عكاظ ومَجنّة وذى المجاز .

أسفار من التاريخ للدنيا وللدين ، وصفحات من السير والعبر للمعتبرين .

يقول جغرافيو العرب إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين

الأرض العالية نجد، وبين الساحل الواطئ تهامة . فهو إذا الجبال الممتدة بين نجد وتهامة من خليج العقبة إلى عسير . ولكن اسم الحجاز في العُرف يشمل تهامة أيضا . وقد قدّمنا تقسيم بلاد العرب كما رواه ياقوت

وطول الحجاز من الشمال إلى الجنوب سبعمائة ميل، وعرضه مائتان وسبعون ميلا .

وجبال تهامة تقسم هذا الأقليم قسمين : ساحل ضيق هو تهامة ، وهضب أوسع يمتد شرقا إلى نجد وهو الحجاز .

وتمتد شرقي الحجاز سلسلة من أرض بركانية ذات حجارة سود نَخِرة، كأنها أحرقت بالنار . وأكثرها بين المدينة والشام، ومنها حرة سُليم إلى الجنوب الشرقي من المدينة ، وحرتا المدينة : الحرة الشرقية والحرة الغربية وحرة خيبر .

وفي حرة بني سليم يقول النابغة في قصيدته التي مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار؟
فموضع البيت من صمّاء مظلمة بعيدة القعر لا يجرى بها الجارى
ندافع الناس عنا يوم نركبها من المظالم تدعى أم صبّار

ومن جبال الحجاز جبل كرا في الطريق بين مكة والطائف

يبلغ علوه مائتى متر ، وجبال الطائف وتبلغ علوها ستمائة متر ، وجبل رَضوى بين المدينة وينبع ، ويرتفع إلى مائتى متر أيضا .

قال ياقوت فى معجمه :

« وقال أبو زيد : وقرب ينبع جبل رضوى . وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية ، ورأيته من ينبع أخضر . وأخبرنى من طاف فى شعابه أن به مياها كثيرة وأشجاراً »

وكان الكيسانية من الشيعة يزعمون أن محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية حىّ مقيم فى رضوى ، وأنه سيهبط يوما ليملأ العالم عدلا . وفى هذا يقول كثيّر :

ألا قل للوصىّ فدتك نفسى ... أطلت بذلك الجبل المقاما

إلى أن يقول :

وما ذاق ابن خَولة طعم موت ... ولا وارت له أرض عظاما
لقد أوفى بمورقِ شِعب رضوى ... تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له به لمقيلَ صدق ... وأندية تحدثه كراما

ويقول فى أبيات ، وتروى عن السيد الحميرىّ أيضا :

وسِبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيّب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وقد ضربت العرب رضوى مثلا للعزة والرسوخ . قال حسان :

لنا حاضر فعم وماض كأنه ... شماريخ رضوى عزة وتكرما

وقال المعرى :

وقد نطحت بالجيش رضوى فلم تبل ... ولُزّت برايات الخميس قُباء

***

وساحل الحجاز كثير الجزائر والصخور والضحاضح ، فالمرافئ فيه قليلة والملاحة شاقة . وأعظم المرافئ جُدة مرفأ مكة ، وينبع مرفأ المدينة . ومن مرافئه الوجه والجار وكان الجار مرفأ المدينة قبل ينبع .

وفى الحجاز أودية تسيل من الحِرار صوب الشرق والغرب ، إلى نجد وتهامة فبحر القُلزم .

وأعظم أودية الحجاز وادى إضَم الذى يسيل من حرة خيبر جنوبها الشرقى ، ويسير نحو الجنوب الغربى حتى يقارب المدينة ثم يدور صوب الشمال والغرب ثم يستقيم مغربا حتى ينصب فى بحر القلزم .

وهو لا يجرى إلا غِبّ مطر كثير ؛ ويظن أنه كان نهرا كبيرا فى العصور الخالية .

ويسمى اليوم وادى الحمض ، وينصبّ فيه واديان : وادى خيبر ووادى المدينة

وقال سلامة بن جندل :

يادار أسماء بالعلياء من إضم ... بين الدكادك من قوّ فمعصوب
كانت لها مرة دارا فغيرها ... مرّ الرياح بسافى الترب مجلوب

وقال البوصيرى فى البردة :

أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم

ومن أودية الحجاز وادى الصفراء . قال ياقوت : وهو واد كثير النخل والزرع والخير فى طريق الحاج ، وسلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وبينه وبين بدر مرحلة . »

وروى ياقوت أيضا أن الصفراء قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها . وهى فوق ينبع مما يلى المدينة . وماؤها يجرى إلى ينبع .

وفى الحجاز واحات متفرقة منها الحائط والحويّط وفدك وخيبر ووادى فاطمة (مَرّ الظهران) والصفراء والطائف .

والقسم الشمالى من الحجاز وهو ما يلى أيلة إلى الجنوب ،

يسمى حِسْمى . واختلف الجغرافيون فى أنها من الحجاز أو بادية الشام ، وقد ذكرها كثيّر فى قوله :

سـيأتى أمير المؤمنين ودونه جماهيرُ حسمى غَورها وحُزونُها
تجاوبُ أصدائى بكل قصيدة من الشعر مهداة إلى من يزينها

وقال أبو الطيب المتنبي فى القصيدة التى وصف بها خروجه من مصر إلى العراق :

وهبّت بحِسمىَ هبوب الدبو ر مستقبلات مهبّ الصّبـا

وقال فى أخبار هذه الرحلة :

وحسمى هذه تؤدّى أثر النحلة من لينها ، وتنبت سائر النبات ، مملوءة جبالا فى كبد السماء متناوحة مُلس الجوانب ، إذا أراد الناظر النظر إلى قلّة أحدها فتل عنقه حتى يراها ، بشدّة . ومنها ما لا يقدر أحد أن يصعده . ولا يكاد القتام يفارقها . وذلك معنى قول النابغة :

وأصبح عاقلا بجبال حسمى دُقاقُ الترب محتزم القتام

وقد اختلف الناس في تفسير هذا البيت ولم يعلموا ما أراد .

تكون (حسمى) مسيرة ثلاثة أيام فى يومين يعرفها من رآها من حيث رآها ، لأنها لا مثيل لها فى الدنيا .

ومن جبالها جبل يعرف بأَرَم عظيم العلو ، تزعم البادية أن فيه كروما وصنوبرا . »

مدن الحجاز وقراه :

لست فى حاجة إلى الكلام على أم القرى ، وصفها وتاريخها ومكانتها فى الإسلام وفى الجاهلية ، فهذا لا يحتاج إلى بيان ولا تتسع لبيانه هذه الفصول الضيِّقة ، ولكن أذكر طرفا من وصفها الطبيعى :

هى فى واد ضيق يتجه من الشمال إلى الجنوب ، تحيط به جبال شاهقة. وهى عند درجة ٢١ من درجات العرض الشمالى ، ودرجة ٣٧ من درجات الطول الشرقى وعلى ١٠٠ كيل من البحر ، وليس فيها ماء إلا ماء زمزم .

وقال ياقوت ، ومثله فى كتاب الهَمْدانى :

« وأما صفتها فهى مدينة فى واد ، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحى ، محيطة حول الكعبة ، حارة فى الصيف إلا أن ليلها طيب .

وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المَسفلة . وما ارتفع عنه يسمونه المَعلاة . وعرضها سعة الوادى . والمسجد فى ثلثى البلد

إلى المسفلة . والكعبة فى وسط المسجد وليس بمكة ماء جار . ومياهها من السماء . وليس لهم آبار يشربون منها . وأطيبها بئر زمزم . ولا يمكن الإدمان على شربها . وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية . فإذا جزتَ الحرم . فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة ، وأودية ذات خُضَر ومزارع ونخيل . وأما الحرم فليس به شجر مثمر إلا نخيل يسيرة متفرقة . »

وسكان مكة اليوم زهاء مائة ألف .

المدينة :

المدينة المنورة التى آوت الدعوة الإسلامية ناشئة ، وربّت أولى الجماعات على هدى الإسلام وفضائله ، واتخذها الرسول صلوات الله وسلامه عليه دار هجرته ، وأقام بها حتى لحق بالرفيق الأعلى ، وبها مزاره الكريم ، وإليه تهوى أفئدة المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، ومنه يقتبسون كل ذكرى عظيمة ، ويذكرون كل سنة كريمة . هذه المدينة لا تحتاج إلى التعريف فى هذا القول المجمل .

فإنما أذكر كلمة تعرف بعض التعريف بمكانها وطبيعتها :

هى على الخط الخامس والعشرين من العرض الشمالى والخط

الأربعين من الطول الشرقى وعلى ثلاثمائة ميل من مكة ومائة وثلاثين ميلا من ينبع .

وهى فى سهل ينحدر الهوينى نحو الشمال ، يحده من جهة الشمال جبل أحد ، ومن الجنوب الشرقى جبل عَير ، وهو على أربعة أكيال منها . ويحده فى الشرق والغرب الحَرتان الشرقية والغربية . والشرقية أبعد عن المدينـة ، بينهما سهل فسيح خصب . وتسمى حرّة واقم . وعندها كانت وقعة الحرّة المعروفة فى عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ ؛ وقال عبد الله ابن قيس الرقيات :

تذكّرنى قتلَى بحرّة واقم أُصِبنَ وأرحاما قُطعن شوابكا

ويمتد سهل المدينـة شطر الجنوب على مدى البصر .

والحرة تسمى اللابة أيضا . ومن أجل هـذا يقال مابين اللابتين أو مابين لابتيها، أى المدينة كلها . وقد جاء فى الحديث « والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتى يارسول الله » ، وأن رسول الله حرم مابين لابتيها أى جعل المدينة حرما .

وشمالى المدينة جبل صغير يسمى سَلْعا ، وعلى ثلاثة أميال منهما شطر الشمال جبل أحد ، وعنده كانت الوقعة المعروفة فى العام

الثالث من الهجرة . وقد جاء فى الأثر : «أُحُدٌ جبل يحبنا ونحبه ، وهو على باب من أبواب الجنة » .

وقد ذكره الشعراء فى حنينهم إلى المدينة ؛ قال محمد بن عبد الملك الفقعسى وهو فى بغداد :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بِسَلْع ولم تُغلق على دروب
وهل أُحُد بادٍ لنا وكأنه حِصان أمام المقرَبات جنيب
يخب السراب الضحل بينى وبينه فيبدو لعينى تارة ويغيب
فإن شفائى نظرة إن نظرتها إلى أحد والحرّتانِ قريب

وعَير الذى تقدم ذكره جبلان أحمران متقاربان ، يسمى أحدهما عيرا الوارد ، والآخر عيرا الصادر وروى فى حديث أن الرسول حرم ما بين عير إلى أُحُد .

وفى سهل المدينة أودية كثيرة تسيل من جنوبيه ومن الحرتين صوب الشمال فتجتمع فى مجتمع الأسيال ، ثم تسيل فى وادى إضم مغربة إلى الساحل .

ولا تجرى هذه الأودية إلا غب مطر غزير ، ولكنها تمد الأرض بعيون وآبار . وأعظم الأودية فى الشرق قناة ، ومَهْزُور ، ومذينب ، وفى الغرب بَطحان ، ورَانونا ، والعقيق .

والعقيق واد واسع به عيون وزرع وشجر، وفيه قرى وقصور لأغنياء المدينة. وقد ذكره الشعراء كثيرا وحنّوا إليه.

قال سعيد بن سليمان فى بغداد يتشوق العقيق:

وبعد المصلى والعقيق وأهله وبعد البلاط حيث يحلو التزاور
إذا أعشبت قرياته وتزينت عِراص بها نبت أنيق وزاهر
وغنى بها الذّبان تغزو نباتها كما واقعت أيدى القيان المزاهر

وقالت أعرابية من العقيق تزوجت فى نجد:

إذا الريح من نحو العقيق تنسمت
تجدّد لى شوق يضاعف من وجدى
إذا رحـــلوا بى نحو نجد وأهله
فحسبى من الدنيا رجوعى إلى نجدى

وقد أكثر الشعراء من ذكر العقيق والتشوق إليه والحنين حتى صار فى الشعر من البقاع الشعرية التى يرمز بها إلى ديار الأحباء. ولله البحترى حين يقول:

وقفـةٌ بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق

وقال على بن الجهم:

هــذا العقيق فمدّ أيـــدى العيس عن غُلوائها

وإذا أطفت ببئر عر ... وة فاسقنى من مائها
إنّا وعيشك ما ذَمَمْنا العيش فى أفنائها

وبئر عروة هذه هى بئر عروة بن الزبير وفيها يقول السرى بن عبد الرحمن الأنصارى :

كفنونى إن مت فى دِرع أروى ... واجعلوا لى من بئر عروة مائى
سخنة فى الشتاء باردة الصيف ... سراج فى الليلة الظلماء

وفى العقيق أيضا بئر رومة . ويقول مصعب بن عبد الله الزبيرى وهو بالعراق

أقول لثابت والعين تهمى ... دموعا ما أكفكفها انحدارا
أعرنى نظرة بقرى دُجَيل ... تخايلها ظلاما أو نهارا
فقال أرى برومة أو بسلع ... منازلنا معطلة قفارا

ومن مدن الحجاز الطائف على جبل غَزوان فى إقليم جبلى مرتفع، ارتفاعه خمسة آلاف قدم ، يمتاز بطبيعته عن أرض الحجاز وهو أشبه باليمن فى هوائه وزروعه وثماره ، حتى قيل فى الأساطير إن إبراهيم عليه السلام لما دعا الله أن يرزق أهل مكة من الثمرات نقل إليهم الطائف وكانت قرية بالشام . وهى مصيف الأغنياء من أهل مكة . قال محمد بن عبد الله النميرى :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وفى الطائف أودية ومياه جارية وبها أصناف كثيرة من الفاكهة .

وهى بوادى وَجّ . وقد ذكر فى الشعر كثيرا ؛ يروى عن عُروة بن جزام .

أحقا يا حمامة بطن وجّ بهذا النوح أنك تصدقينا

وقال كعب بن مالك الأنصارى :

قَضينا من تهامة كل إرب بخيبَرَ ثم أغمدنا السيوفا

ونتزع العروش عروش وجّ وتصبح دوركم منا خُلوفا

وكانت الطائف تقرن بمكة فى الجاهلية لعظمها فتسميان القريتين . جاء فى القرآن الكريم حكاية قول قريش : « وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

والطائف كانت مسكن ثقيف من قبائل العرب كما يأتى ، وكان لهم بها صنم كبير يسمى اللات ، جاء ذكره فى القرآن : « أفرأيتم اللاتَ والعزّى ومناةَ الثالثةَ الاخرى . »

وسكان الطائف اليوم خمسة آلاف نسمة أكثرهم من ثقيف وعتَيبة .

ومن مدن الحجاز وقراه : جُدَّة وهى اليوم مرفأ مكة، وأكبر مرافىء الحجاز . ومنها فى الشمال تَبوك وهى على المحجة القديمة بين دمشق والمدينة ، ومحطة على سكة حديد الحجاز . وإليها كانت غزوة الرسول فى السنة التاسعة من الهجرة . وسكانها اليوم نحو ألف نسمة

والحِجْر فى وادى القُرى على أربع مراحل من تَبوك . وكانت بها ديار ثمود . وقد ذكر فى القرآن : « كذب أصحاب الحجر المرسلين » .

و إلى الشرق من تبوكَ على حافة الصحراء التى تسمى اليوم صحراء النفود ، قرية ، تيماء وكانت تسمى تيماء اليهـود ، قال بعض الأعراب :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى بتيماء تيماء اليهود غريب

وكان بها الأبلق الفرد قصر السموءل بن عاديا الشاعر المعروف . وتيماء اليوم قرية صغيرة فى دارة تيماء إلى الجنوب الغربى من صحراء النفود .

وعلى الواحة حائط من الطين ، وبها أبراج من اللَّبِن لدفع

الغُزاة . وفيها عين كبيرة واسعة جدا . وفيها نخل وزرع من القمح والشعير والذرة .

وسكانها نحو ألفين وخمسمائة إنسان

وأما خيبر التى كان بها زروع ونخيل وحصون فهى اليوم ضيقة العمران . وكانت من منازل اليهود فى جزيرة العرب قبل الإسلام

وسكانها اليوم ثلاثة آلاف أكثرهم مولدون. والعرب ينفرون من الإقامة بها خوفا من الحمّى . وهى واحة فيها قرى قليلة على ستين ميلا شمالىّ المدينة . وهناك أودية وعيون كثيرة .

نجـد

أقول لصاحبي والعيس تَهْوِى ... بنـا بين المُنيفـة فالضِّمار
تمتّع من شميم عَرار نجـد ... فما بعـد العشية من عَرار
ألا يا حبـذا نفحات نجـد ... وريّـا روضـه بعد القِطار
وأهلك إذ يحـل الحىُّ نجداً ... وأنت على زمانك غير زارى
ليـال ينقضـين وما شعَرنا ... بأنصاف لهن ولا سِرار

نجد الفيحاء الخضراء ، ذات الأودية والمروج ، والقرى والحدائق ، وذات الجبال والسهول ، والمدر والوبر ، متقلب القبائل الـكبيرة ، ومسرح الجياد العربية الأصيلة .

نجد ملعب الصَّبا والنعامى (١) ، ومنبت العرار والخزامى ، ومرتع الشعراء ، تجاوبت أرجاؤها بأشعارهم ، ورووت غدرانها ورياضها أخبارهم . بلاد امرىء القيس وطَرَفة والحارث بن حلزّة ، وأوس ابن حَجَر ، وزُهير وعنترة ، ومنشأ جرير والفرزدق ، التى حفظ الشعر العربى ذكراها ، وردّد خارجَ الجزيرة صداها ، وحنّ إلى صَباها .

(١) الصبا : ريح الشرق ، وهى محمودة فى نجد . والنعامى : ريح الجنوب

ألا ياصبا نجد متى هِجتِ من نجد
لقد زادنى مسراكِ وجدا على وجد

نجْد التى أثارت الهوى والفتون ، ونشأت ليلى والمجنون .

نجْد حيث الجبال أجأ وسلمى وأبانان ، وحيث سهل القصيم والصّمان؛ وحيث اليمامة ذات النخيل والزروع ، والأودية والعيون.

مسارح الجلال والجمال ، ومشاهد البداوة والحضارة ، ومجالى النشاط والقوة ، والمروءة والفتوة .

*
* *

نجْد أوسع أقاليم الجزيرة. يمتد بين صحراء النُفود فى الشمال إلى الصحراء الكبرى أو الربع الخالى فى الجنوب ، وما بين الحجاز والأحساء غرباً وشرقا . وطول نجد من الشمال إلى الجنوب زُهاء ثمانمائة ميل ؛ وعرضها من الشرق إلى الغرب زهاء مائتين وعشرين ؛ وارتفاعه بين خمسة آلاف قدم فى الغرب وألفين وخمسمائة فى الشرق ؛ ومعظمه سهل رملى فى جهات ، بركانى فى جهات أخرى .

وفى شمال نجْد أرض شمَّر يفصل بينها و بين النفود جبالُ شمر وهى جبال طيّئ المعروفة فى تاريخ العرب . وهناك جبل أجأ

وسَلمى . وهما الجبلان اللذان اعتصمت بهما طيئ منذ العصور القديمة ، واعتزت بهما وافتخرت ، وردد ذكرهما الشعر .

قال عارق الطائى :

مَن مبلغٌ عمرَو بن هنـد رسـالة
إذا استحقبتها العيس تُنْضَى من البعدِ
أيوعـدنى والرمــل بينى وبينـه
تأمــل رويداً ما أمامة من هنـدِ
ومن أجأ حـولى رِعانٌ كأنهـا
قنـابل خيــل من كُميت ومن وَرْدِ

وقال زيد بن مهلهل الطائى :

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى تخب نزائعا خبب الركاب
جلبنـا كل طِرف أعوجى وسَلْهبة كخافيـة الغراب

وقال لبيد يصف كتيبة النعمان :

كأركان سلمى إذ بدت أو كأنها هضاب أجا إذ لاح فيه مُواسل (١)

ومما يروى من الأساطير ، أن رجلا من العماليق يقال له أجأ هوِى امرأة من قومه يقال لها سلمى . وكان لها حاضنة

(١) مواسل : قنة فى جبل أجأ :

اسمها العوجاء ، فأتمر إخوة سلمى بهما . وهم الغَميم والمُضِلّ وفدَك وفائد والحدَثان ، وانحاز اليهم زوج سلمى ، فهربت سلمى وأجأ والعوجاء . فأدركوا سلمى فقتلوها على الجبل الذى سمى باسمها ، وأدركوا أجأ فقتلوه على الجبل الذى سمى أجأ ، وأدركوا العوجاء فقتلوها على هضبة بين الجبلين ، فسميت العوجاء ، أنِف هؤلاء القوم أن يرجعوا إلى قومهم ، فتفرقوا فى البلاد وسار كل واحد إلى مكان سمى باسمه . فهذه الأسماء ، الغميم والمضل الخ أسماء هؤلاء الرجال (١) .

ومن الأساطير التى تدل على شهرة جبلى طيّئ بالخصب بين العرب أن طيئا أبا القبيلة نزح من اليمن بعد سيل العرم مع عمومته ، ثم فارقهم وسار إلى الحجاز وأوغل فيه . وكان له بعير يشرد فى كل سنة عن إبله ويغيب ثلاثة أشهر ، ثم يعود إليه وقد عبُل وسمن وآثار الخضرة بادية فى شدقيه . فقال لابنه عمرو : تفقد يا بنى هذا البعير ، فإذا شرَد فاتبع أثره حتى تنظر إلى أين ينتهى .

(١) الغميم وفائد وفدك والمضل : أمكنة معروفة فى جزيرة العرب .

فلما كانت أيام الربيع وشرد البعير تبعه على ناقة له فلم يزل يقفو أثره حتى صار إلى جبل طيء فأقام هناك .

ونظر عمرو إلى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخيل والريف فرجع إلى أبيه وأخبره بذلك . فسار طيء بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضا لها شأن .

ورأى فيها شيخا عظيما مديد القامة على خَلق العاديين يقال له أجأ ، ومعه امرأة على خلقه يقال لها سلمى وهى امرأته . وقد اقتسما الجبلين بينهما نصفين فأجأ فى أحد النصفين وسلمى فى الآخر ، فسألهما طيء عن أمرهما فقال الشيخ نحن من بقايا صُحار . غَنِينا بهذين الجبلين عصراً بعد عصر . أفنانا كر الليل والنهار . فقال له طيّء : هل لك فى مشاركتى إياك فى هذا المكان فأكون لك مؤانسا وخلّا ؟

فقال الشيخ : إن لى فى ذلك رأيا . فأقم فإن المكان واسع والشجر يانع ، والماء ظاهر ، والكلأ غامر . فأقام معه طيء بإبله وولده بالجبلين . فلم يلبث الشيخ والعجوز إلا قليلا حتى هلكا . وخلص المكان لطيء فولده به إلى هذه الغاية . وقالوا : وسألت العجوز طيئا ممن هو ؟ فقال :

إنّا من القوم اليمـــانينا إن كنتِ عن ذلك تسأليننا
وقد ضربنا فى البلاد حينا ثمتَ أقبلنـــا مهاجرينا
إذ سامنا الضيم بنو أبينا وقد وقعنا اليوم فيما شينا
ريفا وماء واسعا مَعينا

ولهذه الأسطورة روايات أخرى ممتعة . وليس بعيدا أن تكون بقية مشوبة بالخرافة من أخبار احتلال طيّ الجبلين ، وغلبة أهلهما عليهما .

وارتفاع أجأ يبلغ خمسة آلاف وخمسمائة قدم ، وساحته نحو مائة ميل فى عشرين . وسلمى يساميه علوا ولكنه أصغر منه.

وفى حضيض جبل أجأ مدينة حائل

ويحيط بمعظمها جدار من الطين عال عليه أبراج . وداخل السور بقاع مزروعة قمحا وبها أشجار التين . وسكان حائل خمسة آلاف ، وشرق حائل بساتين ومزارع مسوّرة ، وهناك النخل والتفاح والنارنج والبرتقال والبُرقوق وغيرها

وعلى خمسة وأربعين ميلا إلى الجنوب والشرق من حائل ، على سفح جبل سلمى فَيد ، وحولها بساتين ومزارع كثيرة وسكانها نحو ألف وخمسمائة من تميم وشمّر ، وفيد مذكورة معروفة فى طريق

حاج العراق . وقد ذكرها الحريري في المقامة الكوفية . وقال ياقوت :

« وفيد بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن (القرن السابع) يودع الحاج فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، ووهبوا لمن أودعوها شيئاً من ذلك . وهم معونة للحاج في مثل ذلك الموضع المنقطع . ومعيشة أهلها من ادخار العلوفة طول العام إلى أن يقدم الحجاج فيبيعونه عليهم .

وفي هذا الاقليم قرى أخرى صغيرة

والظاهر أن شمّر اليوم هي طيّئ العصور الغابرة . وقد رحل كثير من بطون شمر إلى العراق منذ أكثر من مائة سنة ، وهم اليوم أكبر قبائل العراق . وقد سألت شيخ مشايخ شمر الشيخ عجيلا الياور رحمه الله ونحن ضيوفه في مضارب شمر في الجزيرة الفراتيّة غربي تلّعفر في صيف سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٦ م) سألته هل شمّر هي طيّئ القديمة ؟ فقال لا أدري ولكن في شمـال العراق اليوم قبيلة طيّئ باسمها القديم . وبين شمّر وبينهم أخوة ومودة ، ولا يبعد أن يكون بيننا وبينهم قربى .

والقسم الشرقى من نجد يسمى الوشوم وقد عدّه ياقوت من اليمامة ، وفيه جبال كثيرة . وفيه من القرى ثَرمَداء والشقراء . وثرمداء تنتهى إليها أودية فى الوشوم . وقال جرير :

أنظر خليلى بأعلى ثرمداء ضحى والعيس جائلة أغراضها جُنُفُ

وقال حميد بن ثور الهلالى :

مابال بُردك لم يمسس حواشيه من ثرمَداء ولا صنعاء تحبير

وهذا يدل على أن ثرمداء كانت معروفة بنسج البرود .

وسهل نجد الفسيح الذى يمتد بين الوشوم فى الشرق وحرة خيبر فى الغرب وجبال شمر فى الشمال يسمى القصيم . والقصيم فى اللغة الرمل الذى ينبت الغضى

قال زيد الخيل الطائى :

ونحن الجالبون سباء عبس إلى الجبلين من أرض القصيم

وروى ياقوت أن القصيم بلد قريب من النباج فيه أودية وفيه شجر الفاكهة من التين والخوخ والعنب والرمان .

وهذه الأسماء أسماء البلدان والأرض لا تبقى محدودة المسمى فقد يسمى الأقليم بقرية فيه أو تسمى القرية باسم الأقليم أو تتغير الحدود بتوالى العصور .

وفى غربى القصيم جبلا أبان : الأسود والأحمر (وكان يسمى الأبيض) وبينهما ثلاثة أميال ، وفى أبان يقول امرؤ القيس فى معلّقته :

كأن أبانا فى أفانين وبله كبير أناس فى بجادٍ مزمّل

وقال أعرابى قد حبس فى اليمامة يحنّ إلى أبان :

أقول لبوّابَىّ والسجن مغلق وقد لاح برق ما الذى تريان ؟
فقالا نرى برقا يلوح وما الذى يشوقك من برق يلوح يمان
فقلت افتحالى الباب أنظر ساعة لعلى أرى البرق الذى تريان
فقالا أُمِرنا بالوَثاق وما لنا بمعصية السلطان فيك يدان
فلا تحسبا سجن اليمامة دائما كما لم يدم عيش لنا بأبان

وقد ذكر أبانان معا فى الشعر فى مثل قول بشر بن أبى خازم

ألا بان الخليط ولم يزاروا وقلبك فى الظعائن مستعار
أسائل صاحبى ولقد أرانى بصيرا بالظعائن حيث صاروا
يؤم بها الُحداة مياه نخل وفيها عن أبانَين ازورار

ومن قرى القصيم عُنيزة وبُريدة ، وهى على مقربة منها نحو الشرق والشمال . وهاتان القريتان أكبر القرى التجارية فى قلب الجزيرة . وفى القصيم غير هاتين نحو خمسين بلدة كبيرة وصغيرة

وسكان بريدة ثلاثون ألفا أكثرهم من بني تميم؛ وسكان عنيزة عشرون ألفا .

***

وفى نجد أودية كثيرة ، أعظمها وادى الرُّمَة . وهو يسيل من حرة خيبر فى الغرب فيتوسط القصيم مارا بين أبانين ويخترق نجدا، كلها حتى يقارب البصرة . ويسمى أسماء مختلفة فى البقاع التى يمر بها.

نقل ياقوت عن الهيثم بن عدى :

« الوادى الذى فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة فى أرض بنى سعد يسمونه الدهناء يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه مَنعِجا ، ثم فى غطفان فيسمونه الرُّمَة ثم فى بلاد طيئ فيسمونه حائلا

ونحن لا نقبل هذا القول الذى يجعل كل هذه الأودية واديا واحدا ، ولكن لا يبعد أن تصل السيول بعض هذه الأودية ببعض ؛ ومهما يكن فلا شك أن مياها متقاربة تسيل من غربى نجد ميممة الشمال الشرقى حتى تقارب البصرة . ولا شك أن هذا المجرى الطويل تدفع فيه أودية أخرى .

وقد عد وادى الجريب أعظم الأودية التى تمد الرمة .

وقيل عن الرمة :

كُلُّ بَنِيٍّ يَسقِينْ حُسَـــيَّةً فيهنِينْ
إلاَّ الجريبَ يُروِينْ

كُلُّ بَنِيٍّ فإنّه يُحْسِينِي إلا الجريبَ إنّهُ يَرْوِينِي

ويشبه أن يكون وادى الرمة نهرا قديما ؛ ولكنه على طوله وسعته التى تكون فى بعض البقاع مسيرة يوم ، وعلى كثرة ما يدفع إليه من الأودية لايجرى ماؤه إلا قليلا . وهو يَغيض فى الرمال. وينبجس فى أرجاء كثيرة ينابيع تنشأ حولها الأشجار والزروع والقرى

ومن أودية نجد وادى حنيفة فى الجنوب الشرقى منها ، وتمتد حِفافيه جنات النخيل وعليه مدينة الرياض .

ووادى الدواسر وهو يسيل من جبال اليمن صوب الشمال والشرق حتى يدخل نجدا . وكان يسمى فلجا أو الأفلاج وقد ذكر بهذا الاسم كثيرا فى الشعر .

وعلى الوادى واحات كثيرة تنبت الزرع والنخل وأشجار الفاكهة ، وفيها قرى صغيرة متفرقة .

***

ومما قال الشعراء فى هذه الأودية قول جرير :

لعمرك لا أنسى ليالى مَنعِج ولا عاقلا إذ منزل الحى عاقل

وعاقل واد آخر يحاذي منعجا

وقال بعض الأعراب :

أُحَبُّ بلاد الله ما بين مَنْعِجٍ إلىَّ وسلمى أن يصوبَ سحابُها
بلاد بها حل الشباب تمائمي وأول أرض مسَّ جلدى ترابُها

وقال المهدىُّ بن الملوّح :

إذا الريح من نحو الجريب تنسمت وجدت لريّاها على كبدى بَرْدا
على كبد قد كاد يُبدى بها الجوَى نُدوبا و بعض القوم يحسبنى جلْدا

ودخل أعرابىٌّ الحَضَر فاشتاق إلى بلاده ، فقال :

لعمرى لنَور الأقحوان بحائل ونَور الخُزامَى فى ألاء وعَرفَج
أحبّ إلينا يا حُميدَ بن مالك من الورد والخيرى ودُهن البَنفسج
وأ كلُ يرابيع وضبٍّ وأرنبٍ أحبّ إلينا من سُمانَى وتَدرُج
ونص القلاص الصهب تدمى أنوفها يجُبْن بنا ما بين قوٍّ ومنعج
أحبّ إلينا من سَفينٍ بدجلة ودرب متى ما يُظلم الليلُ يُرْتج

* * *

ثم القسم الجنوبى الشرقى من نجد يسمى اليمامة . وكانت تسمى جوًّا والعروض ، وكانت قاعدتها مدينة حَجْر .

وكانت اليمامة معروفة فى بلاد العرب بالخصب . كان بها البرُّ

والتمر . وقد ضرب المثل بكثرة نخيلها كما قال أبو العلاء المعرى :
ووجدت العلم ببغداد أكثر من الجريد باليمامة الخ .

وتسمى اليوم العارض وهو القسم الأوسط من جبل طُويق ، وفيه عمران يتسع مائة ميل مربع . ووادى حنيفة وسطه . وفى الجنوب الغربى منه أقليم الخرج ، وهو من أخصب بقاع نجد وقد عُنِي به الملك عبد العزيز آل سُعود ، فاستخرج مياهه بآلات عظيمة ووسع زرعه وغرسه ، ويرجى له مستقبل عظيم . وهو يمتد ثمانين ميلا فى خمسين . وفيه كثير من العيون الجارية .

وفيه مدينة الرياض حاضرة نجد كلها والمملكة السعودية بعد مكة . وهى فى وطأة من الأرض يحيط بها جنات النخيل ويمتد عمرانها نحو ميلين وسكانها قرابة خمسة وعشرين ألفا .

وكانت فى اليمامة منازل طَسْم وجَديس من قبائل العرب البائدة ، ولهما أساطير طويلة شائقة ، تمثل احتراب القبيلتين ، وانتصار تبابعة اليمن لإحداهما ، وإجلاء القبيلتين عن اليمامة .

وتتصل بها قصة زرقاء اليمامة التى كانت ترَى من مسافة ثلاثة أيام ، وقد ضرب بها المثل فى الأشعار والأخبار .

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامهْ
أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامهْ

وقال المتنبي :

وأبصر من زرقاء جَوّ لأننى متى نظرت عيناى شاءهما علمى

وتسمى اليمامة جوّا . والجوّ فى اللغة الوادى الواسع ؛ وفى اليمامة جِواء كثيرة ذات زرع ونخيل .

وللعرب أساطير فى استيلاء القبائل عليها تشبه خرافة استيلاء طيئ على الجبلين ، وطبيعى أن تكون البقاع الخِصبة فى الجزيرة مطمح القبائل ومثار تنافسهم ومسرح خيالهم .

رُوِى أن بنى حنيفة ساروا يرتادون الكلأ حتى قاربوا اليمامة، وأن عبيد بن ثعلبة الحنفى خرج منتجعا بأهله وماله يتتبع مواقع القطر حتى هجم على اليمامة، فنزل على يوم وليلة من حَجْر . ثم خرج راعى عبيد حتى رأى قصور حجر ونخلها ، فرجع إلى سيده فقال : والله إنى رأيت آطاما طوالا ، وأشجارا حسانا، هذا حملها . وأعطاه من التمر الذى وجده تحت النخل، فلما أكل منه عبيد قال : هذا طعام طيب ؛ ثم أصبح فركب فرسه وأردف غلامه حتى أتى حَجْرا ، فوضع رمحه فى الأرض ، ثم دفع فرسه

واحتجر ثلاثين قصرا وثلاثين حديقة ، وسماها حَجْرا . وكانت تسمى اليمامة . ثم ركز رمحه فى وسطها ورجع إلى أهله فاستعملهم حتى أنزلهم بها .

وفى اليمامة قرية منفوحة ، وكان يسكنها الأعشى الشاعر ، وكان بها قبره . وقد سألت سعادة الشيخ يوسف فى هذا فقال : إن بيت الأعشى معروف فى منفوحة اليوم .

وفى اليمامة نشأ مسيلمة الحنفى وكانت بينه وبين جيوش خالد بن الوليد معركة عَقرُباء التى حطمت جيوش مسيلمة وقتلته .

***

وفى شرق نجد إلى الشمال صحراء الدَّهناء .

قال ياقوت : قال أبو منصور الدهناء من ديار بنى تميم . . . وهى سبعة أجبل من الرمل فى عرضها بين كل جبلين شقيقة وهى من أكثر بلاد الله كلأً مع قلة أعذاء ومياه . وإذا أخصبت الدهناء ربَعت العرب جميعا ، لسَعتها وكثرة شجرها وهى عَذاة مكرمة نَزِهة (١) من سكنها لا يعرف الحمى لطيب تربتها وهوائها . »

(١) العذاة : الأرض الطيبة البعيدة من الماء والوخم .

وقال أعرابى حبس بحجْر اليمامة :

هل الباب مفروج فأنظرَ نظرة بعين قَلَتْ حَجرا فطال احتمامُها

ألا حبذا الدهنا وطيبُ ترابها وأرضٌ خَلاء يصدح الليلَ هامُها

ونصّ المهارى بالعشيات والضحى إلى بقر وحىُ العيون كلامها

وقالت العيوف بنت مسعود أخى ذى الرمة الشاعر المعروف

خليلىّ قوما فارفعا الطرف وانظرا

لصاحب شوق منظرا متراخيا

عسى أن ترى ، والله ماشاء فاعل بأكثبة الدهنا من الحى باديا

وإن حال عرض الرمل والبعد دونهم

فقد يطلب الإنسان ما ليس رائيا

يرى الله أن القلب أضحى ضميرهُ لِما قابلَ الروحاء والعرْجَ قاليا

والروحاء والعرْج موضعانِ بالحجاز

وقال الشيخ حافظ وهبة فى كتابه « جزيرة العرب » :

« وقد اخترقنا الدهناء بضع مرار من الشمال ، فقطعناها فى ثلاث عشرة ساعة على الإبل ، ومن جهة الأحساء فقطعناها فى ست ساعات . . . وقد قطعت الدهناء فى رحلتى الأخيرة إلى نجد فى ثلاث ساعات بالسيارة . »

وسكان نجد اليوم نحو ألف ألف بين حاضر و باد .

وأكبر قبائل نجد فى عصرنا : آل مرة وبنو خالد والعجمان فى الشرق ، وقحطان فى الجنوب والجنوب الغربىّ ، والدواسر فى الجنوب الغربى ، وسُبيع والسهول فى الغرب ومطير وعُتَيبة فى الشمال الغربى .

وشمّر فى الشمال حيث جبال شمّر (جبال طيئ)

وحرب وعَنَزَة فى الشمال الشرقى .

وتميم فى الوسط وفى الشمال

وترى أن بعض هذه القبائل حفظت أسماءها القديمة

الأحساء

يلى نجدا إلى الشرق إقليم رملى عرضه خمسون ميلا، ثم تلال حجرية متوالية . و بين هذه التلال والبحر إقليم الأحساء . وهو ساحل واطئ حار يمتد من البصرة إلى عُمان . وقد تغير اسمه على الزمان ، فسمى حينا هجر، وحينا البحرين ، وهو اليوم يسمى الأحساء. وليس بهذا الساحل مرفأ عميق إلا الكُويت .

والبلاد شمالىّ القطيف بيداء سكانها بداة . وفى القَطيف وما يليه نحو الجنوب ميــاه كثيرة تنكشف عنها الرمال . وهى الأحساء على الحقيقة .

والأحساء جمع حِسْى، وهو « الماء الذى تَنْشَفُهُ الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته »، ونقل ياقوت عن الأزهرى « الحِسْى الرمل المتراكم أسفله جبل صلد ، فإذا مُطِر الرمل نَشِفَ ماء المطر . فإذا انتهى إلى الجبل الذى تحته أمسك الماء ، ومنع الرملُ حرّ الشمس أن ينشَف الماء ، فإذا اشتد الحرّ نبث وجه

الرمل، فتنبع باردا عذبا يتبرض تبرضا . وقد رأيت بالبادية أحساء كثيرة على هذه الصفة » (١) .

والإقليم فيه مياه كثيرة و بقاع خصبة فيها الزروع والثمار .

وسكانها نحو ربع مليون من بادية وحاضرة . والبادية أكثر وأكبر القبائل اليوم العِجمان وآل مرّة ، و بنو خالد والعوازم والرشايدة . و إلى الشرق من الهفوف تمتد بقعة خصبة اثنى عشر ميلا . وهناك بقاع أخرى متفرقة خضراء خضلة ترويها العيون .

ويُزرع هناك الأرز وحبوب أخرى كالحنطة والشعير، وأكثر غلاّتهم التمر ، وأنواعه كثيرة .

ومن الفواكه الأترجّ والليمون والرمان والمشمش والعنب والتين .

وفى الإقليم الخيل العربية الجياد ، وفيه حُمُر فارهة — والحمر البيضاء العالية تسمى فى مصر الحساوى (الحصاوى) ، والظاهر أنها جلبت من الحَسَا .

وفى الأحساء ، إلى الإبل والغنم ، بقر جيد . و يطعم البقر أحيانا

(١) نبث الرمل : نبشه ، وتبرض الشىء : أخذه قليلا قليلا .

ضربا من السمك الصغير ، كما يطعم بعض الحيوانِ التمر القديم .

واسم البحرين مقصور اليوم على جزيرة أوال وما يتبعها من الجزائر ، لا يشمل هذا الإقليم كله كما شمله فى بعض العصور .

وأول هذا الساحل المديد من ناحية عُمان يسمى الجو باسم قبيلة هناك . ويليه إلى الشمال شبه جزيرة قَطَر . والظاهر أنها كانت معروفة بنسج ضرب من الثياب يسمى القَطَرية . وقد ذكرت فى شعر العرب .

وقد نسب إليها جرير إبلا نجائب فى قوله :

خليلىّ لولا أن تظنَّا بى الهوى ... لقلت سمعنا من سُكينة داعيا
قفا واسمعا صوت المنادى فإنه ... قريب وما دانيت بالودّ دانيا
ألا طرقت أسماء لا حين مَطرَق ... أخَمّ عمانيا وأشعث ماضيا
لدى قطَريّات إذا ما تغوّلت ... بها البيد غاولن الحزوم الفيافيا

وكان فى قطر سوق للنجائب .

وأهل قطَر صيادو لؤلؤ منذ العصور القديمة .

ويلى قَطَر إلى الشمال مدينة الحَسَا ، وتسمى اليوم الهفوف . والهفوف قاعدة إقليم الحسا .

وهى ثلاثة أقسام : الكوت والرفعة والنعاثل .

والكوت هى قاعدة الولاية عليها سور رفيع عليه أبراج من آثار إبراهيم باشا المصرى .

وسكان الهفوف زُهاء ثلاثين ألفا ، وفيهم من غير العرب كالفرس والترك والكرد .

وعلى مقربة من الهفوف شطر الشمال مدينة المبرّز فى بقعة خصبة ، وسكانها نحو عشرة آلاف .

وللهفوف والمبرز مكانة علميـة فى الإقليم ولعلمائها وأدبائها حرمة هناك . وفيهما أسر قديمة توارثت العلم والأدب ، وحفظت سنتها فى التعلم والتعليم .

وعلى مقربة من الهفوف مرفأ عُقَير . ثم الساحل إلى الشمال من الهفوف يسمى القطيف .

والقطيف واحة طولها ثمانية عشر ميلا ، وعرضها ثلاثة أميال ، وسكانها ثلاثون ألفا .

والمدينة وسطها ، وتمتد على الساحل مسافة طويلة ، وسكانها إثنا عشر ألفا .

وكانت القطيف قاعدة الإقليم إقليم البحرين ، وأعظم مدنه فى القرن السابع الهجرى .

وكان بين الخوارج أيام نَجْدَةَ الخارجىّ وبينَ عبد القيس وقائع هناك ، انتصر فيها الخوارج . فقال حَمَل بن المَعَنى العبدى ، من عبد القيس :

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها فما خَيْر نصح قبلُ لم يُتَقَبَّل
فقد كان فى أهل القطيف فوارس حماة إذا ما الحرب ألقت بكلكل

وكان هذا الساحل قبل أن يغلب عليه اسم القطيف يسمى الخطّ . وهو الذى نسبت إليه الرماح الخَطّية ، إذ كانت تصنع هنالك . ونقل ياقوت عن الأزهرى :

« وهذا السِّيف كله يسمى الخَط . ومن قرى الخط القطيف والعُقَير وقَطَر » . ثم قال ياقوت : « قلت أنا وجميع هذا فى سِيف البحرين وعُمان . وهى مواضع كانت تجلب إليها الرماح القَنا من الهند ، فتقوم فيها وتباع على العرب » .

ولا شك أن اسم هذا الساحل تغير بغلبة أسماء بعض البلاد عليه كما تقدم

ومن القطيف إلى الكويت ساحل رملى منخفض .

وعلى خليج الكويت مدينة بهذا الاسم ويتبعها إقليم فيه اليوم إمارة عربية لآل الصبّاح . ومساحة الإقليم عشرون ألف

ميل وسكانه سبعة وثلاثون ألفا معظمهم فى مدينة الكويت .

والكويت كالقُصَير تصغير كوت بمعنى القصر ، وكوت فى العراق اسم لمدينة وتسمى كوت الإمارة .

وفى الكويت تروج تجارة اللؤلؤ .

وغربى خليج الكويت كاظمة ، وهى أعظم منازل الطريق من البصرة إلى الأحساء فاليمامة ، على مرحلتين من البصرة ، وبها مياه قريبة يستسق منها المسافرون . وقد ذكرها الفرزدق كثيرا وافتخر بقبر جده غالب هناك . وأكثرَ الشعراء من ذكرها .

قال بعضهم :

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة … يسعى على قصرات المَرْخ والعُشَر
لله درُّ بيوت كان يعشقها … قلبي ويألفها أن طيّبت بصرى
فقدتها فقد ظمآن إداوتَه … والقيظ يحذف وجه الأرض بالشرر
أمنية النفس أن تزدار ثانية … رحالَنا والأمانى حلوة الثمر

ولا أدرى لماذا أكثر الشعراء من ذكرها إلا أن يكون هذا لأنها أول المنازل من العراق فى طريق مكة والمدينة .

وأحسبها التى ذكرها البوصيرى فى البردة إذ قال :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة … وأومض البرق فى الظلماء من إضَم

وقال أعرابي من بني يربوع من تميم :

ضمنتُ لَكُنّ أن تهجُرن نجدا وأن تسكنَّ كاظمة البحور

وقال امرؤ القيس :

إذ هُنَّ أقساط كرِجل الدَّبى أو كقَطَا كاظمة الناهل

وجمعها الفرزدق في قوله :

فياليت داري بالمدينة أصبحت بأعقار فَلْجٍ أو بِسِيف الكواظم

* * *

إمارة البحرين :

كانت البحرين تقال على ساحل الأحساء وما يتصل به من الجزائر .

وهي اليوم مقصورة على جزائر في الخليج الفارسي ، على حذاء ساحل قَطَر والقَطيف . وهي جزيرة البحرين (أوال) والمحرّق وأم نَعسان وسِترة وجزائر أخرى صغيرة .

وعاصمة البحرين المنامة في جزيرة أوال وسكانها ٢٥ ألفا ، وسكان البحرين كلها نحو مائة وعشرين ألفا .

وأعظم العشائر بها العتوب (بنو عُتيبة) والسادة والدواسر وأمراء الجزيرة آل خليفة .

وأشيع المكاسب فى البحرين استخراج اللؤلؤ ، فلا يقل المشتغلون به عن عشرين ألفا ، يستعملون نحو ألف سفينة .

ويرسل إليها اللؤلؤ المستخرج من السواحل فتروج سوقه هناك ، حتى يصدر منه أحيانا ما قيمته مليونان من الجنيهات .

وكثير من أهل البحرين زراع ، وأكثر زرعهم وثمارهم البطيخ والتمر والتين والليمون والأترج .

اليمن

بلاد العرب السعيدة — كما سماها قدماء الأوربيين — ذات الحضارة العتيقة، والآثار العادية، وذات المياه والأشجار والزروع.

الإقليم الذي يمتد جنوبي الحجاز إلى بحر العرب ومضيق باب المندب فيه أقسام طبيعية ثلاثة:

١ — ساحل ضيق قلّ أن يعدو عرضُه عشرين ميلا

٢ — وجبال موازية للساحل تمتد من الطائف إلى أن تكون على خمسين ميلا شمالىّ عدن. وهى امتداد جبال السَّراة الضاربة فى الجزيرة إلى شمالى الحجاز

٣ — وهَضْب وراء هذه الجبال جهة المشرق يهبط الهوينَى صوب الشمال الشرقى، حتى يفضى إلى رمال الدهناء أو سهوب نجد.

تهامة اليمن:

فأما القسم الأول فهو تهامة اليمن، وهو سهل خصب جداً

تنحدر إليه أودية من الجبال ، فتسقى فيـه أرضا خصبة تغل ثلاث غلات فى العام ، وتكثر فيها الأشجار والزروع ، وتعالج هنالك مياه الأودية بالسدود والقنوات فتسقى بهـا الأرض ، لا يذهب منها شيء سُدى

وفى هذا الساحل قرى ومدن . وهو كساحل الحجاز كثير الجزائر والضحاضح . والحديدّة أعظم مرافئه منذ بدأ عصر البخار، ومخا وقنفذة من المرافئ الصغيرة . والساحل الجنوبى فيه عَدَن، وهى المرفأ الطبيعى الملائم فيما بين السويس والهند .

ومن مدن تهامة اليمن زَبيد و بيت الفقيه

جبال اليمن :

والقسم الجبلى هو اليمن على الحقيقة . وهو كثير الأمطار، تجلب إليه المطرَ الرياحُ الموسمية ، وفيه أودية دائمة الجريان . ولأهله عناية بتصريف المياه والانتفاع بها ، لا يدّخرون وُسعا فى زرع سفوح الجبال ، يسوونها مستويات متوالية على السفح

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان فى اليمن من حضارة وعمران وخصب ورخاء ، فقال فى سورة سَبأ :

« لقد كان لسَبأٍ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشِمال .

كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » .

عسير :

والقسم الشمالى من اليمن المجاور للحجاز يسمى اليوم « عسيرا » ، وهى تسمية لم تعرف فى القديم .

وقبيلة عسير التى يسمى بها الأقليم هى بجيلة ، إحدى قبائل اليمن المعروفة ، وكانت تسمى باسمها القديم الى القرن السابع الهجرى على الأقل .

وفيه أودية وزروع وقرى كثيرة ، منها بيشة وتربة وهى مدينة مسورة كبيرة ، تحيط بها المزارع والنخيل ، وفيها مبان كثيرة ومنها أبها ومرفؤها القنفذة على مائتى ميل جنوبى جدة وصبيا . وكانت حاضرة الأدراسة أمراء عسير

الدول القديمة باليمن :

ليس من غرضى فى هذا الكتيب الكلام فى التاريخ إلا لمحات يسوق إليها ذكر بلد أو مكان ؛ ولكنى أثبت هنا كلمة مجملة فى

دول اليمن القديمة للدلالة على حضارة اليمن الأولى ، وما يرجى لها في مستقبلها إن شاء الله .

اليمن من أقدم مواطن الحضارة السامية ، وهي تمتاز في طبيعتها عن سائر الجزيرة . وقد نشأت ، ولا في الأعصر الخالية ، بقيت أخبارها في روايات مختلفة هي كما يأتي :

١ — المصادر العبرية . تعدد التوراة أسماء قبائل اليمن ، ويعرف من أخبار اليهود أن التجارة بينهم وبين سبأ كانت متصلة في القرن العاشر إلى القرن الخامس ق . م

٢ — وكتب اليونان والرومان وهي تخلط بالحقائق خرافات كثيرة .

٣ — والآثار اليمنية ويرجع أقدمها إلى القرن ١٨ ق . م

٤ — والكتب العربية . وأعظمها كتاب الإكليل للهمداني ، وشرح القصيدة الحميرية التي نظمها نشوان بن سعيد الحميري .

وهذه خلاصة موجزة عن هذه الدول

مَعين :

أول دول اليمن ، دولة معين التى يظن أنها عاشت فى الألف الثانى قبل الميلاد . وقد بقيت إلى القرن الثامن ق . م ، ولم تذكر فى الكتبَ العربية، ولكن ذكرها بعض مؤرخى اليونان والرومان، ودلت الآثار التى كشفت فى اليمن على طرَف من تاريخها . وعرف كثير من أسماء ملوكها . ويظن أن سلطانها امتد على الجزيرة إلى خليج فارس والبحر الأبيض المتوسط . وكانت تصدر الطيب والمر إلى الآفاق، وتتلقى تجارة الهند وما جاورها فترسلها إلى الشام ومصر وما يليهما . وقد ظهرت سبأ ونازعتها السلطان حتي قضت عليها حول القرن الثامن ق م .

سبأ :

أقدم الآثا المؤرخة التى ذكرت فيها سَبَأ آثار أشور حيث يقول الملك سرجون (٧٤١ — ٧١٥ ق م) الذى توغل فى بلاد العرب محاربا : « قد أخذت الجزية من فرعون ملك مصر، ومن شمسية ملكة بلاد العرب ، ومن أتهمارة السبئ ذهبا وتوابل ، ورقيقا ،وخيلا ، وإبلا » .

وأتهمارة تحريف يَتا أمر ، وهو اسم كثير من ملوك سبأ .

وقد ازدهرت سبأ بمكانها على طريق التجارة بين الشرق والغرب فكانت تجارة الهند تنقل فى البحر إلى عمان، ثم تحمل فى البر إلى البحر الأحمر، حيث تسير فى السفن إلى مصر، ولكن صعوبة السير فى البحر الأحمر عدلت بالتجارة إلى البر، فصارت التجارة تنقل من شَبْوت فى حضرموت إلى مأرب حاضرة مملكة سبأ (مريابة)، ثم إلى مكة (مكرابه) ثم بطرا فغزة .

فلما تغير طريق التجارة ، وكان هذا فى القرن الأول الميلادى فيما يظن ، اضمحلت سبأ وتفرق سكانها . وفى القرآن الكريم ذكر سبأ وعمران بلادهم وسيرهم بالتجارة إلى الشام ثم خراب ديارهم : «لقد كان لسبإٍ فى مَسْكَنِهِم آيةٌ جنتانِ عن يمينٍ وشمال ، كُلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غَفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبدَّلناهم بجنَّتيهم جنَّتَينِ ذواتَى أُكْلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القُرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين »

والقرى التي بورك فيها هى الشام، فقد كانت القرى ومظاهر العمران متصلة بين اليمن والشام

حمير :

كانت حمير وأمارات أخرى فى اليمن ، تحارب سبأ بين الحين والحين ، فاستطاعت سبأ أن تقضى على بعضها — وثبتت حمير حتى اضمحلت سبأ ، فخلفتها فى القسم الجنوبى الغربى من اليمن ، بين أرض سبأ والبحر ، وقد امتد سلطانهم على قبائل العرب فى الشمال إلى القرن الخامس . ولكن حمير لم تبلغ من الغنى و بسطة السلطان مبلغ سبأ وقد عرّضها مكانها على البحر لهجوم الحبش . حاول بعض ملوك الحبش أن يملك اليمن فى القرن الثانى ، وتمكن ملك آخر من أخذ بعض مدائنها فى أواخر القرن الثالث ، ثم أخرج الحميريون عدوهم من ديارهم حتى إذا كان القرن الرابع تنصر الحبش وأيدهم الرومان على حمير فملكوا اليمن إلى سنة ٣٧٤ ثم أديل للحميريين مرة أخرى . وفى القرن السادس تهود تبع ذو نُواس ، وأراد إكراه نصارى اليمن على التهود، فلما أبوا أوقع بهم تقتيلا وتحريقا، ويقال إنها الوقعة التى

ذكرت فى القرآن فى سورة البروج : « قتل أصحاب الأخدود » الآية . فحمِىَ الحبش لإخوانهم نصارى اليمن، وأرسلوا جيوشهم ، فاستولت على البلاد ، وتولاها أبرهة قائد الحبش وهو صاحب قصة الفيل المذكورة فى القرآن، وكانت حول سنة ٥٧٠ م ثم استنصر سيف بن ذى يزن كسرى أنوشروان ملك الفرس (٥٣١ — ٥٧٩) فأمده بجيش فارسى حملته السفن إلى عمان ثم سار فى البر حتى لقى جند الحبش فتعاون العرب والفرس، وأزالوا سلطان الأحباش عن اليمن ، وجاء الإسلام واليمن فى حوزة الفرس .

وفى الكتب العربية خلط ملوك سبأ وحمير وشَوْب تاريخهم بكثير من الخرافات .

وهذا ذكر بعض ما يروى عن ملوك حمير على علاته .

تختلف الكتب فى عددهم وسنيهم إختلافا كثيرا . فحمزة الأصفهانى مثلا يذكر ٢٦ ملكا فى ألفين وعشرين سنة، ويذكر ابن خلدون أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

وأول من ملك من أولاد قحطان حمير بن سبأ، وتوارث بنوه الملك من بعده ، حتى صار الأمر إلى الحارث الرائش ، فاجتمع له

ملك اليمن كله ، وهو تُبَّع الأول . وقد بلغ فى غزواته الهند ، ثم غزا بعدهم الترك فى أذربيجان .

وكان الرابع من التبابعة :

إفريقيس بن أبرهة — ويقال إنه غزا أرض المغرب ، وبنى بها مدينة أفريقية وسماها باسمه ، وأبعد المغار فى تلك البلاد ، إلى أقاصى العمران .

وكان السابع من التبابعة :

بِلقيس بنت هَدْهاد — فبقيت فى اليمن عشرين سنة ، ثم تزوجت سليمان بن داود عليه السلام فنقلها إلى فلسطين .

والتاسع من التبابعة :

شَمَرْ يَرْعَش — ويقال إنه الذى كان يسمى ذا القرنين ، وأنه بلغ من بعد مغازيه أنه غزا المشرق فدوّخ بلاد خراسان ، وهدم سور مدينة الصُغْد (سمرقند) ، فسميت شمرقند ، أى شمر هدم ، ثم عربت الكلمة فقيل سمرقند .

وكان الخامس عشر منهم يقال له :

أسعد أبو كرب . وكان شديدا على حمير فقتلته . وولى بعده ابنه حسان بن تبع وهو الذى غزا اليمامة وأباد جديس . وقد

تتبع قتلة أبيه بالقتل حتى مالأ الناس عليه أخاه عمرا فقتله ، وولى مكانه ، وقد نهاه عن قتله ذو رُعين الحميرى الذى تذكر قصته فى كتب الأدب .

ولا تزال ذكرى حسان اليمانى فى قصص العامة .

والتاسع عشر يقال له :

تبع بن حسان . وهو الذى غزا المدينة ، وأخذ معه حبرين من اليهود إلى اليمن فيهود . وهو الذى عقد الحلف بين اليمن وربيعة .

والسادس والعشرون منهم :

ذو نُواس . وهو الذى غزا نصارى نَجْران ، وشق لهم أخاديد فى الأرض ، فأحرقهم فيها . ويقال إن الآية فى سورة البروج : «قُتل أصحاب الأخدود . . » الخ إشارة إلى هذا . ثم استغاث نصارى اليمن بملك الحبشة ، وكان الحبش قد تنصروا ، فكتب ملكهم إلى قيصر فأعانه على غزو اليمن ، وانهزم ذو نواس ، وألجأه الطلب إلى البحر ، فاقتحمه ، فغرق وتسلط الحبش على اليمن . وليها أبرهة صاحب الفيل ، واستقل بحكمها ، ثم خلفه ابنه يكسوم ، ثم ابنه الثانى مسروق . وفى عهده (حول سنة ٥٧٠ م) خرج سيف بن ذى يزن مستصرخا كسرى أنوشروان ، فأرسل معه

جنداً وأسطولاً فأخرجوا الحبش من اليمن بعد أن تسلطوا عليها زُهاء سبعين سنة . ويقال إن قدوم الفرس إلى اليمن كان بعد حرب الفِجَار بعشر سنين وعمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ ذاك ٣٠ سنة . فقد جاءوها إذا حوالى سنة ٦٠٠ م ، وهذا غير صحيح .

وقد تتابع على اليمن ولاة من الفرس حتى انتشر الإسلام فيها ، فدانت للرسول صلوات الله عليه ، والوالى من الفُرس حينئذ باذان .

وقصة سيف بن ذى يزن أثرت فى القصص العربى أثرا قويا ، ولا تزال قصص سيف شائعة بين العامة . وقد حرصت كتب الأدب على روايتها ورواية ما قيل فيها من الشعر ، وما اخترعه لها القُصّاص .

ومما روى فى هذا أبيات أمية بن أبى الصَّلت

وقصتها كما رواها صاحب الأغانى أنه لما ظفر ابن ذى يزن على الحبش وأخرجهم من اليمن ، وذلك حوالى سنة ٥٧١م أتته وفود العرب من كل صوب ، وقصده الشعراء يهنئونه ، ويشيدون

بظفره . وكان فى وفد قريش عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وخويلد بن أسد

قال : « فأتوه بصنعاء وهو فى رأس قصر له يقال له غُمدان ، فأخبره الآذن بمكانهم ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه وهو على شرابه ، وعلى رأسه غلام واقف ينثر فى مفرقه المسك ، وعن يمينه و يساره الملوك والمقاوِل و بين يديه أمية بن أبى الصلت الثقفى ينشده هذه الأبيات :

لا يطلب الوتر إلا كابن ذى يزن ... فى البحر خيّم للأعداء أحوالا
أتى هرقلَ وقد شالت نعامته ... فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم ... تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
لله دَرهمُ من فتية صبروا ... ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا
بيض مرازبة غُلْب أساورة[1] ... أسد ترَبَّت فى الغيضات أشبالا
فالقطْ من المسك إذ شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم فى برديك إسبالا
واشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... فى رأس غمدان دارا منك محلالا
تلك المكارم لا قَعبانِ من لبن ... شِيبا بماء فعادا بعد أبوالا

---

(١) المرازبة جمع مرزبان ، وهو بالفارسية القائد الحارس للحدود . والأساورة : جمع أسوار ، وهو الفارس

ويؤخذ من الأبيات أن هرقل لم ينجد سيفا على الحبش . وكان الحبش قد تنصروا ولم يكن يرجى أن ينصر عليهم الروم أحداً ؛ والفرس كانوا أعداء الروم وأعداء الحبش لصلتهم بالروم. فأمدّ كسرى أنوشروان سيفا بجيش حملته السفن إلى عمان . وساروا إلى اليمن ، فأعانوا العرب على الحبش حتى أجلوهم من اليمن ، كما تقدم

مدائن اليمن :

الطريق من الحجاز إلى اليمن تدور حول الجبال التى عليها مدينة الطائف، ثم تجتاز الحدود حدود اليمن حتى تمر بتَبالة ، وهى فى واد خصيب يضرب المثل بخصبها قال لبيد :

فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تبالة مخصِبا أهضامها

وقال القتّال :

وما مُغزِلٍ ترعى بأرض تبالة ... أراكا وسدرا ناعما ما ينالها
وترعى بها البَردين ثم مَقيلها ... غياطلُ ملتفّ عليها ظلالها
بأحسن من ليلى وليلى لَشبهها ... إذا هتكُت فى يوم عيد حجالها

ومن أمثال العرب : «أهون من تَبالة على الحجاج» . يروى أن الحجاج ولى تبالة، وكانت أول عمل تولاّه ، فلما قرب منها قال

للدليل : أين تبَالة ؟ وعلى أى سمت هى ؟ فقال ما يسترها عنك إلا هذه الأكمة. فقال: « لا أرانى أميرا على موضع تستره عنى هذه الأكمة ، أهون بها ولاية » . وكر راجعا

وبعد مسيرة يوم من تبالة شطر الجنوب يمر السائر بوادى بِيشة . وهو واد خصيب آهل ، به نخيل كثير، على بعد ٢٤٠ ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة، وفيه عدة قرى أكبرها بيشة، وكان به مأسدة ، فقال العرب : أسود بيشة ، كما قالوا أسود خفّان، وأسود الشرى .

قال حسان :

كأنهم فى الوغى والموت مكتنِع أسود بيشة فى أرساغها فدَع

وقال السمهرى :

وأنبئت ليلى بالغريّين سلّمت علىّ ودونى طَخفة ورِجامها
فإن التى أهدت على نأى دارها سلاما لمردود عليها سلامها
عديد الحصى والأثل من بطن بيشة وطرفائها ما دام فيها حمامها

ووادى بيشة هذا ينصب إلى نجد . ثم تستقيم الطريق إلى الجنوب حتى صعدة . قال ياقوت :

« صعدة مخلاف باليمن ، بينه وبين صنعاء ستون فرسخا .

وبينه وبين خيوان ستة عشر فرسخا . قال الحسن بن محمد المهلبي : صعدة مدينة عامرة آهلة، يقصدها التجار من كل بلد . وبها مدابغ الأَدَم ، وجلود البقر التي للنعال . وهي خصبة كثيرة الخير ، وهي في الإقليم الثاني ، عرضها ست عشرة درجة »

وصعدة اليوم أقل عمرانا مما كانت .

وتنشعب من المحجة الكبرى عند صعدة طريق نحو الشرق إلى نجران .

ونجران مدينة في مخلاف نجران . وتاريخها قبل الإسلام متصل بتاريخ النصرانية في بلاد العرب الجنوبية ، فقد كانت موئل النصرانية هناك . وللعرب روايات مختلفة في ابتـداء هذا الدين بها .

وقد بنيت بها كنيسة كبيرة سميت كعبة نجران مضاهاة للكعبة المكرمة التي كانت لها المكانة الأولى في أديان العرب الجاهليين . روى أن الذين بنوها بنو عبد المدان الحارثي . وروى ابن الكلبي أنها كانت قبة من أَدَم من ثلاثمائة جلد ، كان إذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفِد رُفِد .

وكانت لعظمها عندهم يسمونهـا كعبة نجران . وكانت على نهر بنجران . » ويقول الأعشى :

وكعبة نجران حتم عليـك حتى تُناخى بأبوابهـا
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساوهم خير أربابها
وشاهدنا الجُلّ والياسمو ن والمسمعات بقُصّابهـا[1]
وبَرْبَطنـا دائم مُعمَل فأى الثلاثة أزرى بهـا

ولما غلب الحبش على اليمن فى القرن السادس الهجرى — كما قدمنا — اعتز بهم النصارى ، وراجت الدعوة إلى النصرانية ، وأراد الحبش أن يجعلوا لدينهم الكلمة العليا فى بلاد العرب ، فسيروا جيشا لهدم الكعبة . وكان فى الجيش فيل . ولم يبلغ الحبش مأربهم ، ورجعوا خائبين مقهورين ، وسمى هذا العام عام الفيل . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوقعة فى سورة من سور القرآن عرفت بسورة الفيل :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول . »

(١) القصابة المزمار

وقدم وفد نصارى نجران على الرسول صلوات الله عليه فى السنة التاسعة من الهجرة ، فأنزلهم فى المسجد ، وضيفهم وكتب لهم أمانا . . .

وتستقيم المحجة من صَعدة إلى الجنوب حتى صنعاء مدينة اليمن . وهى حاضرة اليمن اليوم وفى معظم العصور الإسلامية ، ومن أقدم المدن العربية ، نَزِهة كثيرة المياه والأشجار والفواكه ، طيبة الهواء . ولا يتسع المقصود فى هذا الكتيب للكتابة عن صنعاء ، ولا هى فى حاجة إليها .

ويذهب طريق من صنعاء إلى الشرق حتى مأرب حاضرة ملك سبأ ، وهى اليوم أطلال تحدث عن تاريخ قديم وعلوم وفنون ، وكان بها السد الذى يسمى سدّ العرم . وقصة انهدام السد وتفرق العرب ومهاجرتهم إلى الشمال من أسير القصص فى تاريخ العرب وأدبهم وأساطيرهم . وأكتفى هنا بقول الأعشى :

فنى ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب عفى عليها العَرِمْ
رخام بنته لهم حمير إذا ما نأى ماؤه لم يَرِمْ
فأروى الحروث وأغنامها على ساعة ماؤهم إن قُسِمْ
فكانوا بذلكم حقبة فمال به جارف منهدم

وهناك اليوم قرى صغيرة وزروع .

وتسير الطريق بعد صنعاء إلى الجنوب حتى ذمار وتريم وكانت على هذه الطريق ظفار ، دار مُلك حمير . وقد قيل فيها : من دخل ظفارِ حمَّرَ أى تكلم باللغة الحميرية .

وعلى هذه الطريق سُحول ، وكانت معروفة فى القديم بنسج القطن ، وكانت تحمل منها ثياب بيض تسمى السُحولية . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن فى ثوبين سُحوليين . وقال طرفة بن العبد :

لهند بِحِزَّان الشرَيْف طلول ... تلوح وأدنى عهدهن مُحيلُ
وبالسفح آيات كأن رسومها ... يمان وشته رَيدة وسُحول

ورَيدة قرية باليمن كذلك ، وكانت على مقربة من سحول قلعة المذيخيرة ، وكانت معتصم القرامطة فى اليمن حينا ، وهى قلعة حصينة فى رأس جبل فيه عيون يسيل منها نهر يسقى بعض القرى .

وتسير الطريق من بعدُ إلى الجنَد . وكانت مدينةَ اليمن الثانية بعد صنعاء ، وإليها ذهب معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما بعثه الرسول صلوات الله عليه ليعلم أهل اليمن . وبالجند مسجد معاذ ، يقصده الناس من كل الأرجاء ، وليس بها اليوم ما يذكر إلا

المسجد . وكانت أعمال اليمن فى العصور الإسلامية الأولى مقسمة على ثلاث ولايات : الجَنَـد ومخاليفها ، وهى أكبرها ؛ وصنعاء ومخاليفها ، وهى الوسطى ، والثالثة حضرموت ومخاليفها .

وآخر مدينة يمنية إلى الجنوب مدينة تَعِزّ . وكانت حاضرة الدولة الرسُولية التى قامت فى اليمن بين سنة ٦٢٦ وسنة ٨٥٨ هـ

حضرموت ومَهْرة وعُمان

شرق اليمن على الساحل ، ساحل بحر العرب ، وهى أرض جبلية تحدّها أودية كثيرة . ويقطعها من الغرب إلى الشرق وادى القصر ، يجرى فيه الماء طول السنة ، وعليه تقوم أكبر المدن : شبام وتَرِيم . وقد ذكر الأعشى تريم ، ولست أدرى أهى تَرِيم حضرموت أم غيرها . قال :

طال الثـــواء على تَرِيـــم وقد نأت بكر بن وائل

ويقال إن قبر هود النبي عليه السلام إلى الجنوب والشرق من تَرِيم .

وأحسن مرافئ حضرموت المكلاّ

وحضرموت متصلة باليمن تاريخا فالدول القديمة التى قامت باليمن امتد سلطانها على حضرموت أكثر العصور ، وفى العصور الإسلامية كانت حضرموت تعد إحدى ولايات اليمن ، وعدها ابن الفقيه مخلافا من اليمن ، وفى حضرموت كثير من الآثار القديمة والنقوش المتصلة بآثار اليمن .

مَهرة :

ويمتد إلى الشرق من حضرموت ساحل يسمى مَهْرة أو الشِحر . والشحر فى اللغة العربية الجنوبية معناه الساحل .

وحد هذا الساحل من الشرق قرية حاسك . وإلى القرب منها مِرباط . وكانت مرباط مرفأ مدينة ظفار . وهى غير ظفار التى باليمن . وكانت عامرة إلى القرن السابع الهجرى ، وهى اليوم خربة .

ويقول ياقوت عن مرباط :

« وهى مدينة مفردة بين حضرموت وعمان على ساحل البحر ، لها سلطان برأسه ، ليس لأحد عليه طاعة . وقرب مدينته جبل نحو ثلاثة أيام فى مثلها ، فيها شجر يُنبت اللُّبان ، وهو صمغ يخرج منه ويلتقط ويُحمل إلى سائر الدنيا ، وهو غَلّة الملك ، يشارك فيه لاقطيه .

وأهلها عرب ، وزيهم زِيُّ العرب القدماء ، وفيهم صلاح مع شراسة فى خلقهم وزعارة وتعصب . »

وظفار كانت عامرة مشهورة فى القرن السابع ، يقول ياقوت :

« فأمّا ظفارِ المشهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند . بينها وبين مرباط خمسة فراسخ . وهى من أعمال الشِحر وقريبة من صُحار ، بينها وبين مرباط . »

ومَهرة قبيلة عربية سمى بها الإقليم ، وإليها تنسب الإبل المهريّة التى ردد الشعر العربىّ أوصافها . وهى النجائب التى تتخذ للأسفار . قال أبو تمام :

يقول فى قومَسٍ قومى وقد أخذت　　مِنا السُّرى وخُطا المَهْريّة القُودِ

ويقول المتنبى :

تَمِسُ المهارِى غيرَ مَهْرِيّةٍ غدا　　بمصوَّر لبس الحرير مصورا

* * *

وأهل اليمن وحضرموت والشحر هم تجار العرب ، وأولو السفر والاغتراب منذ العصور الأولى . وهم الذين نشروا اللغة العربية والإسلام فى سواحل إفريقية الشرقية وجزائر بحر العرب وعرّبوا كثيرا من أقطارها ، وقد امتدت أسفارهم إلى الهند وجاوة وما يتصل بها ، وأقاموا فى تلك الأصقاع منذ عصور بعيدة ، وكانوا صلة بينها وبين الجزيرة العربية .

عمان :

المنتهى الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب . وهو في شرقيها، كاليمن في غربيها ، إقليم جبلي خصيب . وساحلها شديد الحرارة كثير المرافىء ، وأهلها ملاحون مهرة ، خبروا البحار وعرفوا أسفارها منذ قرون متطاولة . و يصطادون السمك كثيرا ، وسمك خليج عمان وافر .

وأعظم جبال عمان الجبل الأخضر ، يعلو ألف قدم . وفيه ينابيع كثيرة ، يحسن الناس تصريف مياهها والانتفاع بها .

ومَسْقَط حاضرة البلاد اليوم . وهي على أحسن مرافئ الخليج الفارسي ، وحرّها شديد جدا ، يصطاف أهلها على الجبل . ومن مدن الجبل نزوة ، وهي مصطاف أمير عُمان ، ولها شهرة بالنسج .

وإلى الشمال من مسقط مدينة صُحار وهي الحاضرة القديمة وكانت تسمى عمان باسم الإقليم كله .

وإلى الشمال مدينة دبا في شبه الجزيرة ، الذي ينتهي برأس مُسَندام .

وكانت صُحار حاضرة عمان فى القرن السابع الهجرى ، قال ياقوت :

« وصحار قصبة عمان مما يلى الجبل ، وتُؤام قصبتها مما يلى الساحل . وصحار مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه ، مبنية بالآجر والساج ، كبيرة ليس فى تلك النواحى مثلها .

وقال البشارى :

« ليس على بحر الصين بلد أجلّ منه ، عامر آهل حسن طيّب ، نزه ذو يسار وتجارة وفواكه ، أجلّ من زَبيد وصنعاء ، وأسواق عجيبة و بلدة ظريفة ممتدة على البحر . دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة . والجامع على الساحل له منارة حسنة طويلة فى آخر الأسواق ، ولهم آبار عذبة ، وقناة حلوة ؛ وهم فى سعة من كل شىء ؛ وهو دهليز الصين ، وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن . » هـ

وفى هذا بيان لعظم شأنها فى التجارة بين جزيرة العرب والمشرق .

وإلى صحار ينسب محمد بن زوزان الصُحارى العُمانى الشاعر ، وكان قد نكب فخرج إلى بغداد ، فقال يتشوق إلى أهله :

لحى الله دهرا شردتنى صروفه عن الأهل حتى صرت مغتربا فردا
ألا أيها الركب اليمانون بلغوا تحيَّة نائى الدار، لقِّيتمُ رشدا
إذا ما حللتم فى صُحارَ فألمموا بمسجد بشّار وجوزوا به قصدا
إلى سوق أصحاب الطعام فإنه يقابلكم بابان لم يوثقا شدّا
ولم يُرددا من دون صاحب حاجة ولا مرتج فضلا ولا آمل رفدا
فعوجوا على دارى هناك فسلّموا على والدى زوزان وقيّتم جَهْدا

وأما دبا فسوق للعرب مشهورة. ذكرت فى أخبارهم وأشعارهم، وكان فيها وقعة فى حروب الردة.

الصحراء الكبرى

أو الربع الخالى

تمتد شرقىّ اليمن وشمالىّ حضرموت والشحر وغربىّ عُمان وجنوبىّ نجد، صحراء واسعة مترامية الأرجاء تفصل بين العمران فى جنوبىّ الجزيرة فى وجهاتها الأخرى

وهى إلى اليوم، مجهَل لم يُعرف داخلها إلا قليلا. وليس بها ماء إلا آبار بعيدة الغور فى بعض أطرافها. ولكنها تنبت بعد الأمطار مراعىَ أثيثة، فينتجع الأعراب مراعيها مُوغلين فى جوفها مسافات بعيدة، فيبقون ثلاثة أشهر أو أربعة يشربون لبن الإبل ويأكلون لحمها. وتجتزىء الإبل والغنم بالعُشب.

ولم يسمّ العرب هذه الصحراء باسم جامع؛ ولكن سمّى أهل كل قطر ما يليهم منها باسم خاص:

فطرفها الذى يمتد شرقى اليمن إلى الشمال والغرب من حضرموت يسمى صَهيد

والذى شمال حضرموت وشرقيه يسمى الأحقاف. وهى فى

أخبار العرب مواطن قوم عاد . وقد ذكرها القرآن الكريم فى الآية : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف . »

والجانب الذى شمالىّ مهرة يسمى وبار . وفى أساطير العرب أن وبار أرض خصبة ولكن سكانها الجن ، لا يدخلها أحد إلا أهلكوه . قال ياقوت :

ويزعم علماء العرب أن الله تعالى لما أهلك عادا أسكن الجن فى منازلهم وهى أرض وبار .

فحمتها من كل من يريدها، وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجراً ونخلا وخيراً وأعذبها عنباً وتمراً وموزاً . فإن دنا رجل منها عامداً أو غالطاً حثا الجن فى وجهه التراب ، وإن أبى إلا الدخول خبلوه وربما قتلوه . »

وهذه خرافة تمثل خوف العرب من هذه الصحراء ، وهلاك من يضل فيها . وروى أنه فى هذا الإقليم الإبل الحوشية ، والعرب تزعم أنها من نسل الجن . ولا يبعد أن يكون العرب قد عرفوا فى هذه الصقع إبلا وحشية لم تستأنس ، وأنهم عرضوا إبلهم لها لتلقح منها .

قال شاعر :

كأن على حُوشية أو نعامة لها نسب فى الطير أو هى طائر

وقال الجاحظ فى كتاب الحيوان :

« وزعم ناس أن من الإبل وحشية ، وكذا الخيل ، وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك ، فزعموا أن تلك الإبل تسكن أرض وبار لأنها غير مسكونة . ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب . قالوا : وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض ، فيضرب فى أدنى هَجمة(١) من الإبل الأهلية . قالوا : فالمهرية من هذا النتاج .

وقال آخرون : هذه الإبل الوحشية هى الحوش ، وهى التى من بقايا إبل وبار ، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وجاسم ، بقيت إبلهم فى أماكنهم التى لا يطورها(٢) إنسى .

فإن سقط إلى تلك الجيزة بعض الخلعاء أو بعض من إضل الطريق حثت الجن فى وجهه ، فإن ألح خبلته .

---

(١) الهجمة من الإبل : مازاد على الأربعين

(٢) طار المكان يطوره : إذا حام حوله

فضربت هذه الحوش فى الثمانية ، فجاءت هذه المهرية ، وهذه العسجدية التى تسمى الذهبية . وأنشدنى سعدان المكفوف عن أبى العميثل قول الراجز :

ماذم إبلى عجم ولا عرب   جلودها مثل طواويس الذهب

وقال ابن منظور فى لسان العرب :

الحوش بلاد الجن من وراء رمل يبرين لا يمر بها أحد من الناس . وقيل هم حى من الجن . وأنشد لرؤبة :

إليك سارت من بلاد الحوش .

والحوش والحوشية إبل الجن . وقيل هى الإبل المتوحشة... ويقال إن فحلا من فحولها ضرب فى إبل لمهرة بن حيدان فنُتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية ، فهى لا تكاد يدركها التعب . » ه

وليس بعيدا أن تكون فى تلك البقاع إبل وحشية قوية ، تؤخذ وتذلل وتتخذ منها فحول الإبل ، أو تخالط هى إبلا مستأنسة تلاقيها .

وأما خرافة الجن فمسايرة لخيال العرب الذى ينسب كل عجيب

إلى الجن كما جعلوا للشعراء جنا ، وسموا الشيء العجيب عبقريا . وقالوا إن عبقر أرض الجن

وقد جعل الفرزدق وبار مثلا فى غموض طرقها على السابلة ، قال :

ولقد ضللت أباك يطلب دارما كضلال ملتمس طريق وَبَارِ

وتسمى صحراء وبار الدهناء أيضا لحمرة رمالها كما سميت الصحراء التى شرقى نجد . وقد روى أن هذه الصحراء صحراء وبار كانت مسلوكة وكان تجار العرب يخترقونها إلى مرباط وظفار فى مهرة . وقد عرف هذا إلى القرن السابع الهجرى

وقسم الصحراء الكبرى الشمالى الشرقى يسمى يَبرِين ، وفى يبرين واحة خصبة تمر بها طريق الحج من عُمان . واشتهرت يبرين فى الكلام العربى بكثرة رمالها .

وقد جاءت فى شعر جرير :

لما تذكرت بالديرين أرقنى صوت الدجاج وضرب بالنواقيس

فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا يابعد يَبْرِين من أرض الفراديس

وقال أبو زياد الكلابى :

أراك إلى كثبان يبرين صَبة وهذا لعمرى لو قنعت كثيب

والجانب الممتد بين البحرين واليمامة يسمى عالجا ، وهو معروف بكثرة رماله أيضا

قال عبيد بن أيوب

انظر فرنّح جزاك الله صالحة رأد الضحى اليوم هل ترتاد أظمانا
يعلون من عالج رملا ويعسفه أخو رمال بها قد طال ما كانا
إذا حبا عَقَد نكبْن أصعبه واجتبن منه جماهيرا وغيطانا

وقال آخر :

فياراشقات العين من رمل عالج متى منكم سِربٌ إلى الماء وارد
فما القلب عن ذكرى أميمة نازع ولا الدمع ، مما أضمر القلب ، جامد

سكان الجزيرة

تختلف الأقوال فى تقدير سكان الجزيرة إذ لم يتناولهم إحصاء دقيق والتقدير الذى كان فى عهد الحكومة العثمانية .

الحجاز	٣٠٠و٠٠٠
اليمن وعسير	١و٨٠٠و٠٠٠
نجد	١٠٠٠و٠٠٠
حضرموت	١٥٠و٠٠٠
عمان	١٠٠٠و٠٠٠
الحسا	٣٠٠و٠٠٠
بادية الشام	٢٧٥و٠٠٠
وذلك كله	٤و٨٢٥و٠٠٠

وهذا تقدير لا يعوّل عليه .

ومن الناس من يقدر سكان الجزيرة بخمسة عشر مليونا . وفى هذا التقدير غلوّ .

وأقرب تقدير إلى القصد أن فى الجزيرة ، ما عدا البادية الشمالية ، نحو سبعة ملايين .

ثلاثة ملايين فى الحجاز وتهامة وعسير أى الإقليم الممتد على البحر الأحمر من العقبة إلى اليمن .

ومليونان ونصف فى اليمن والسواحل الجنوبية .

ومليون ونصف فى وسط الجزيرة ونجد وما يتصل بها شرقا .

ولا بد من إحصاء دقيق يركن إليه الباحث . ثم لابد من درس شامل لأحوال القبائل الحاضرة ، وصلاتها بالقبائل القديمة ، ليعرف كيف رحلت قبائل من ديارها واستقرت أخرى ، وكيف انقسمت قبائل وتجمعت قبائل من أصول مختلفة ، وكيف تغيرت أسماء بعض القبائل بغلبة عشيرة منها وتسمية القبيلة باسمها . وهكذا .

إن جزيرة العرب نالت من عناية السلف نصيبا موفورا . ونحن الآن أقدر على التجوال فيها وتقدير مساحتها وسكانها ، ودرس حيوانها ونباتها ومواتها ، ووضع المصورات الشاملة المفصلة فمتى نؤدى هذا الواجب ؟ ومتى نتعرف الأمكنة التى جاءت فى التاريخ والسيرة النبوية ، والتى ذكرت فى أخبار العرب وأشعارهم ونستعين بهذا على درس أدبنا وتاريخنا درسا قد أعدت عُدده وهيئت وسائله من الحقائق التى لايمارَى فيها ؟

وفيما يلى كلمة موجزة عن القبائل كما عرفت فى أواخر الجاهلية وصدر الإسلام مع بيان ما يتصل بها من القبائل الحاضرة

طبيعة الجزيرة العربية اضطرت جمهرة أهلها إلى التبدّى . فهم ينتجعون المراعى ويتتبعون مواقع القطر فلا تستقر بهم معيشة . وهم يتزاحمون أحيانا على منابت العشب وموارد المياه فيتقاتلون عليها ، وربما غلبت قبيلة على ديار أخرى ، فهم كثيرو الرحيل والمهاجرة ولكن معظم القبائل لها منازل تتنقل فيها ولا تعدوها . ولما عُنى الرواة والمؤرخون بقبائل العرب وديارها عرفوا لكل قبيلة بقاعا عاشت فيها واختصت بها .

وربما تُغير قبيلة على أخرى طمعا فى أموالها لا طمعا فى مراعيها ، وكم شنت لذلك الغارات ، واستبيحت الحرمات .

ومن أجل هذا وذاك احتاج البدوى إلى قرابة يعتز بها وعصبية ينضوى إليها ، وقبيلة يمتنع ببأسها ، فالتحمت القرابات واشتدت العصبيات ، وحفظت الأنساب .

وكما اختلفت طبيعة الجزيرة بين الجنوب والشمال اختلفت معايش القبائل فى الشمال والجنوب ، وامتاز أهل اليمن ومايتصل بها بضروب من الحضارة والمعيشة ، حتى ذهب بعض الباحثين إلى

أن عرب الجنوب أمة وحدهم ، لا يمتون إلى عرب الشمال بقرابة الأصل .

ومهما يكن فقد هاجر كثير من عرب الجنوب إلى الشمال واختلطوا بقبائله ، واستوطنوا مواطن بينها فى نجد والحجاز والبلقاء وغيرها .

وأذكر هنا قبائل الجزيرة كما عرفت فى أواخر الجاهلية ، وأوائل العصور الإسلامية ،وأكثر القبائل هاجر منها مهاجرون ، ولكنها بقيت فى ديارها . وكثير من القبائل حفظت أسماءها الأولى ، وكثير منها تغيرت أسماؤها بانقسامها وغلبة بطون منها تبسط سيطرتها وأسماءها على القبيلة كلها ، ومهما يكن فلابد من اتخاذ أسماء القبائل القديمة وديارها وسيلة إلى معرفة القبائل الحاضرة وأنسابها .

وقد قال رواتنا ومؤرخونا فى العرب البائدة ، وهى التى لم يكن فى الجزيرة إلا أخبارها حينما جاء الإسلام . وبعض هؤلاء عرف التاريخ أخبارهم ودلت عليهم آثارهم مثل عرب اليمن وثمود فى شمالى الحجاز .

١

وأخبار القبائل البادية وأساطيرها جديرة بعناية المؤرخ والأديب و بعضها موضوع لقَصَص ممتع .

وأعظم البائدة شأنا فى الروايات عاد وثمود وطسم وجديس وعُبيل وعبد ضخم وجُرهم .

فأما عاد فكانت بالأحقاف ، وهى الرمال التى شرقيّ اليمن ، وشماليّ حضرموت ، وقد ذكرهم القرآن ، و بيّن طرفاً من أخبارهم حينما جاءهم النبى هود عليه السلام ، وفى حضرموت اليوم قبر يقال إنه قبر هود ، وسميت سورة من القرآن باسم « الأحقاف » .

وقد كشفت آثار عليها خط سبئى فيه أسماء ومواطن لقبيلة عاد

وأما ثمود فكانوا بالحِجْر ووادى القرى شماليّ الحجاز . وفى القرآن خبرهم مع النبى صالح . ويذكر سرجون الثامن ملك أشور قبيلة ثمود بين القبائل التى أخضعها . وذكرها تيودور و بطليموس فى منازلها المعروفة شمالى الحجاز .

و يؤخذ من الكتابات النبطية أن ثمود فى القرن الثانى الميلادى كانت تملك حرة العويرض ، وقد ذكرهم بعض مؤرخى

اليونان والرومان وكان منهم فرقة في الجيش الروماني وعرفت أخبارهم إلى القرن الخامس الميلادي .

ودلت عليهم آثارهم في مدائن صالح وقرئت كتابتهم وعرفت بين الباحثين باسم الخط الثمودي، ولا يزال البحث يكشف عن أخبارهم، وكانت ثمود سببا في انتشار الخط بين القبائل فانتشر ما بين الحبشة والشام .

وأما طسم وجديس فكانت باليمامة . وكان السلطان لطسم ، فعسف ملوكها بجديس ، فثارت عليها وأوقعت بها ،فاستصرخ بقيتها حسانَ بن تبع اليماني، فسار إلى اليمامة، وأهلك جديس . ولهم في الأساطير العربية قصص ممتعة .

وأما عبيل فيقال إنهم إخوان عاد وأن منازلهم كانت بالجُحفة، بين مكة والمدينة . ويقال إنهم الذين اختطوا يثرب . وقد أهلكهم السيل .

وعبد ضخم كانوا بالطائف ، وكانت جرهم باليمن ، ثم انتقلت إلى الحجاز ، ووليت أمر الكعبة إلى أن أخرجتها خُزاعة وكِنانة فرجعت إلى اليمن و بادت هناك . ويروى أن إسماعيل بن إبراهيم أبا العرب المستعربة تعلم العربية من هذه القبيلة في مكة .

٢

وأما العرب الباقون فقد قسمهم الرواة إلى القحطانين والعدنانين .

ومن الأولين شعبان : حِمْيَر وكهلان . ومن الآخرين ربيعة ومضر . ويتشعب كل شعب قبائل كثيرة

وأما ديارهم التى كانوا بها حينما جاء الإسلام ولا يزال كثير منهم فيها باسمه القديم أو اسم حديث فهذا إجمال القول فيها ، وذكرت طرفا منها عند ذكر أقاليم الجزيرة أيضا :

قبائل قحطان :

يقسمها النسابون إلى حمير وكهلان .

ولا يزال قحطان اسما لقبيلة قوية ديارها إلى الغرب والشمال الغربى من الصحراء الكبيرة التى تسمى اليوم الرُّبع الخالى ، وبين نجران وعسير أيضا ، وهى شديدة الحِفاظ على العادات .

وإلى الجنوب منها أرض كهلان .

ومن كهلان :

طيّئ وهَمدان ومَذحِج والأزد وعاملة وجُذام ولخم .

فأما طيئ فقد عرفت منذ عصور متطاولة قبل الإسلام فى

جبليها أجأ وسلمى المذكورين فى نجد . وقد سمى الفرس والسريان العرب كلهم « تازى » ويظن أنها تحريف كلمة طائى .

ويسكن جبال طيئ اليوم قبيلة شمر . وقد رحل كثير من شمر إلى العراق منذ قرن أو أكثر ، وهم اليوم أعظم قبائل العراق.

وأما همدان ومذحج فقد بقى أكثرهم فى اليمن ولا يزالون بها اليوم . ومن مذحج بلحارث وهم اليوم إلى الجنوب الشرق من الطائف . ومنهم عشيرة صغيرة على الساحل بين جيزان وميدى .

وأما الأزد فهم قبائل قوية نزلوا عمان والسَراة ومنهم غسان الذين كانت لهم إمارة فى الشام ، والأوس والخزرج فى المدينة .

ومنهم خزاعة ، ويتصل قصصها بتاريخ مكة . ومنهم اليوم جماعة فى وادى فاطمة فى الحجاز وفى تهامة قرب القنفذة على البحر الأحمر .

قبائل حمير :

هى قضاعة على اختلاف الأقوال فى أنها يمنية أو عدنانية . ومنها بهراء وتنوخ فى الشام . وقد عرفنا فى شمالى الشام قبل

الإسلام وفى مواطن أخرى . وإلى تنوخ ينتسب أبو العلاء المعرى
ومنها جُهَينة فى وادى إضم على مقربة من المدينة . وقد انتشرت
فى صدر الإسلام واستوطن فريق منها مصر ولا تزال جُهينة
الحجاز فى ديارها .

وقبيلة عُذرة جيرانهم . ولهم فى الأدب ذكر جميل ويُنسب
إليهم الهوى العذرى وهو الحب العفيف . وبطلهم فى هذا
جميل بن معمر صاحب بثينة . وهم فى مواطنهم إلى اليوم .

ومن قضاعة بَلِيّ شمالى الحجاز ولا يزالون هناك .

وقد هاجر إلى مصر كثير من جهينة وبَلِيّ بعد الفتح الإسلامى

ومن قبائل حمير أيضا كلب فى شمالى الحجاز وبادية الشام ،
وكانوا أقوى القبائل هناك ، ولهم شأن فى أخبار العرب فى صدر
الإسلام والدولة الأموية .

قبائل عدنان :

١ — ربيعة :

كانت لربيعة ديار على دجلة عرفت باسمها ، وكان لمضر منازل
على الفرات عرفت بها كذلك ، ثم انتشرت قبائل ربيعة فنزلت
تغلب والنمر منازل مضر . وأوغلت بكر إلى الشمال حتى الأرض

التي سميت باسمها ديار بكر. ومن بكر بنو حنيفة فى اليمامة، وكان منهم مسيلمة المتنبيء، ولا تزال ديارهم فى نجد، وهناك وادي حنيفة وعليه مدينة الرياض.

ومنهم عبد القيس فى البحرين وما يتصل بها

ووائل الذى يجمع بكرا وتغلبا اسم لبطن من عنزة اليوم ومن ربيعة عنزة وأسد كانتا متجاورتين فى نجد شمالى وادى الرُّمة يمر بهما طريق الحاج من البصرة إلى المدينة. ويروى أنهم دفعوا قضاعة إلى الشمال فى عصر بعيد قبل الإسلام. وفى القرون الأخيرة استولت عنزة على معظم بادية الشام، ومنهم اليوم سباعة فى الشمال الشرقى من البادية، والرولة فى الغرب. وتمتد ديار عنزة اليوم من نجد إلى الحجاز، فوادى السرحان، فبادية الشام إلى حلب.

وأسد إحدى قبائل العراق اليوم. وكانوا هناك فى القرن الرابع الهجرى، وهم الذين اتهموا بقتل المتنبى فى طريقه إلى بغداد عند دير العاقول.

ومما يتفكه به هنا أنه لما احتفلت البلاد العربية بذكرى أبى الطيب المتنبى فى دمشق سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م) جمعنا مجلس

ببعض الأدباء، ومنهم الرصافى الشاعر العراقى رحمه الله، فقال أقترح أن يطالب الشيخ سالم الخيُّون (شيخ بنى أسد) بدية المتنبى وتعطى لفلان الشاعر. وسمى شاعرا من شعراء العراق.

ومنهم بنو حنيفة أصحاب اليمامة، وشيبان. وقد امتدت ديارشيبان شمالا إلى العراق وكان لهم مع الفرس وقائع منها وقعة ذى قار. وقد اتصلت هذه الوقائع بحوادث الفتح الإسلامى بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى.

قبائل مضر:

أعظم قبائل مضر فى القديم قيس عيلان. ويحمل اسم قيس اليوم قبيلة صغيرة على الفرات تؤدى خوّة (أتاوة) لشمر. وشرقيهم عَدْوان وهم فى سيطرة شمر. وكانت عدوان من قبل جنوبى الحجاز قريبة من فهم وهُذَيل.

ومن قيس:

هوازن وسليم. وكانت منازلهم غربى نجد إلى شرق المدينة ومكة.

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى تمردت سليم وجيرانها من

هلال ، فحور بوا فهاجروا إلى مصر ، وأقاموا فى الدلتا ، ثم انتقلوا إلى الصعيد .

وفى القرن الخامس سنة ٤٤٤ هـ أغراهم الفاطميون بالرحيل إلى المغرب ، فرحلوا ووقعت بينهم و بين القبائل الضاربة هنالك وقائع لا تزال ترددها القصص العامية الذائعة ، قصص أبى زيد الهلالى وما يتصل بها .

ومن قيس ثم من بنى عامر : كلاب وقُشير وعُقيل .

ولعقيل اليوم موطن فى نجد ، ومنهم المنتفك ، ولا يزالون ذوى قوة فى العراق على الفرات الأدنى ، و يسمى باسمهم لواء من ألوية العراق .

ومن قيس غطفان ، ومن غطفان عبس وذبيان ، ومن ذبيان فزارة ، وكان لغطفان وفروعها شأن فى الأدب الجاهلى . ولا تزال حروب عبس وذبيان وما قاله فيها زهير ، و بطولة عنترة وما حيك حولها من قصص ، لها مكانة واضحة فى الأدب العربى .

ومن مضر ضبة وتميم . وتميم من أعظم قبائل العرب فى الجاهليـة والإسلام ، وأخرجت كثيرا من الشعراء والخطباء .

وحسبنا أوس بن حجر وجرير والفرزدق من الشعراء و بنو الأهتم من الخطباء .

وقد حلت تميم فى نجد قبل الإسلام فى بعض منازل بكر وتغلب فى شرق نجد . ثم امتدت إلى أرجاء كثيرة . ولا يسمى اليوم تميما إلا قبيلة فى العراق على الفرات الأدنى ولكن كثيرا من حاضرة نجد ينتمون إلى تميم ومنهم جماعات فى جبال شمر شمالى نجد .

ومن مضر كذلك :

مزينة (وتسمى اليوم حربا) ، وهى فى الحجاز وغربى نجد . وإلى الشرق منهم اليوم فى نجد بعد وادى الرمة قبيلة عتيبة من قبائل نجد ، وشرق هؤلاء مُطير . ومن القبائل المضرية الحاضرة بنو خالد فى اليمامة ، أى الجنوب الشرقى من نجد .

ومن قبائل مضر :

هُذيل ، ولا يزالون فى الجبال التى إلى الجنوب من مكة . وكان منهم فى الجاهلية وصدر الإسلام شعراء . وقد جمع شعر جماعة منهم فى « ديوان شعراء هذيل » ، وعلى مقربة من هذيل ثقيف ، وهم أ كثر سكان الطائف فى هذا العصر .

ومن مضر:

كنانة وقريش . وهما فى غنى عن التعريف . ولا تحمل اسم قريش اليوم إلا قبيلة صغيرة من الرعاة يعرفون بصنع الجبن فى منى وأطرافها .

ومنها فهم وهم إلى الجنوب من ثقيف . وهم هناك حتى اليوم

وبنو سعد من الطائف إلى الجنوب الشرق وهم أصل قسم كبير من عُتَيبة .

ويضيق المجال عن استقصاء أسماء القبائل وبطونها ، وذكر طرف من أخبارهم وأحوالهم فى القديم والحديث . وهذا كله جدير بالعناية والبحث الواسع المفصل .

وألحق بهذا الفصل أبيات للأخنس بن شهاب التغلبي يذكر بعض قبائل العرب وأوطانهم .

لكل أناس من معد عمارة ... عروض إليها يلجئون وجانب

لُكَيْز[1] لها البحران والسِّيف كله ... وإن يأتها بأس من الهند كارب

تطاير عن أعجاز حوش كأنها ... جهام أراق ماءه فهو آئب

(١) من عبد القيس

وبكر لها ظهر العراق وأن تخف يحل دونها من اليمامة حاجب[١]
وصارت تميم بين قف ورملة لها من جبال منتأى ومذاهب
وكلب لها خبت[٢] فرملة عالج إلى الحرة الرجلاء حيث تحارب
وغسان حَيٌّ عزهم فى سواهم يجالد عنهم مِقنب وكتائب[٣]
وبَهْراء حيٌّ قد علمنا مكانهم لهم شرك حول الرصافة لاحب
وغارت إياد فى السواء ودونها برازيق عجم تبتغى من تضارب
ولخم ملوك الناس يُجْبى إليهم إذا قال منهم قائل فهو واجب
ونحن أناس لاحجاز بأرضنا[٤] من الغيث ماناقي ومن هو غالب
ترى رائدات الخيل حول بيوتنا لمعزى الحجاز أعجزتها الزرائب

وفى كتاب الهمْدانى منظومات تكلفها الشعراء لبيان المواطن والقبائل ، منعنى طولها من إثباتها هنا ، فليرجع إليها من يشاء .

---

(١) يعنى أن بكر امتدت إلى العراق وبعض قبائلها فى اليمامة
(٢) ماء لبنى كاب ، وعالج التى هنا : شمالى نجد
(٣) يريد أن الروم يدافعون عنهم
(٤) أرضهم ليس بها ما يعتصمون به

قائمة بالمطبوعات

التى يمنح عليها خصم ٢٥٪ بمقتضى القسائم المقدمة مع مجلة «الكتاب» وعدد «اقرأ» الصادرين فى أول مارس سنة ١٩٤٦

السعر ص		
٣٥	فصول فى الأدب والنقد	للدكتور طه حسين بك
٢٥	أديب	» » » »
٤٠	حديث الأربعاء ثالث	» » » »
٢٥	مع أبى العلاء فى سجنه	» » » »
١٨	الحب الضائع	» » » »
١٨	صوت باريس الجزء الثانى	» » » »
٢٥	جنة الشوك	» » » »
٤٠	مستقبل الثقافة فى مصر	» » » »
٢٠	الموجة العذراء	للأستاذ أحمد الصاوى محمد
٢٠	حياة قلب	» » » »
٥٠	رجال ونساء جزءان	» » » »
٢٠	جرائم شرقية وغربية	» » » »
٢٠	شباب الفولجا	» » » »
٢٠	العاصية	» » » »
٢٥	شللى	» » » »

ص			
٢٥	بلزاك		للأستاذ أحمد الصاوى محمد
٢٥	بيروت		» » » »
٢٥	التلميذة الخالدة		» » » »
٢٠	مأساة فرنسا		» » » »
٢٠	الرقص على البارود		» » » »
٢٠	الطابور الأول		» » » »
٢٥	أنا الشرق		» » » »
٢٥	الشيطان لعبته المرأة		» » » »
٢٥	عبقرية الصديق		للأستاذ عباس محمود العقاد
٢٥	الصديقة بنت الصديق		» » » »
٢٥	فرنسيس باكون		» » » »
١٥	مجمع الأحياء		» » » »
٢٥	الخطايا السبع		للأستاذ على أدهم
٢٠	نظرات فى الحياة والمجتمع		» » »
٢٠	تلاقى الأكفاء		» » »
١٥	كما تهواه	لشكسبير	تعريب محمد عوض ابراهيم بك
١٥	الليلة الثانية عشرة	»	» » » » »
٢٠	أنطونى وكليوباترا	»	» » » » »
٥٠	الحياة الإنسانية عند أبى العلاء		للسيدة إبنة الشاطىء
٢٠	سيد العزبة		» » »
٢٥	البيـــادر		للأستاذ ميخائيل نعيمة
٢٥	الغربال		» » »
٢٥	إبراهيم الثانى		للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
١٥	ميدو وشركاه		» » » »

ص		
٢٥	الملك الضليل (امرؤ القيس)	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٥	مع الزمان	» » » » »
٤٠	تبسيط اللاسلكى	للأستاذ محمد عاطف البرقوقى
٧	المهندس الصغير	» » » »
٣	قصص علماء الطبيعة	» » » »
٢٥	الأغذية	للأستاذ حسن عبد السلام
٢٥	الكيمياء ومسائل الحياة اليومية	» » »
٣٠	العلم يحيط اللثام	» » »
٢٠	فى شمال أفريقيا	للأستاذ الملازم أول السيد فرج
٢٠	الهجوم على أوربا	» » » » »
١٥	أحاديث فى الحرب	للأستاذين الصاغ محمد عبد الفتاح ابراهيم والملازم الأول السيد فرج
٨	معنى الحياة للورد افبرى	وترجمة الأستاذ وديع البستانى
١٢	السعادة والسلام » »	» » » »
٦	الناشئة تأليف شارل وانير	وترجمة الأستاذ حافظ نجيب
١٠	الغرور » ماكس نوردو	» » » »
٥	روح الإعتدال تأليف شارل وانير	» السيدة وسيلة محمد
٦	جماع العلم للامام الشافعى	للشيخ أحمد شاكر
٥٠	المفضليات للضبي جزءآن	للأستاذين الشيخ أحمد شاكر وعبد السلام هرون
٨	حمزيات أبى تمام	للأستاذ عبد السلام هرون
٣٠	على هامش الغفران	للأستاذ كامل كيلانى
٥٠	مكتبة الثقافة والقراءة الأدبية للجيب خمسة أجزاء	للدكتور أحمد فريد رفاعى بك

ص		
٢٥	التصوير الفنى فى القرآن	للأستاذ سيد قطب
٢٥	فى الأدب المصرى	للأستاذ أمين الخولى
١٨	الفكر العربى	للأستاذ سامى الكيالى
٣٠	تغريدات الصباح	نظم الأستاذ محمد الأسمر
٢٠	بنت الشيطان	للأستاذ محمود تيمور بك
٢٠	ألوان من الحب	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
١٨	رجلان وامرأة	للأستاذ محمد على غريب
٨	الرجال منافقون	للأستاذ محمود كامل المحامى
٢٠	أنصاف عثمان	المرحوم محمد أحمد جاد المولى بك
٢٥	غادة رشيد	للأستاذ على الجارم بك
٦٠	الملك فؤاد	للأستاذ كريم ثابت بك
٣٠	روزفلت	للأستاذ فؤاد صروف
٢٥	الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى	للدكتور زكى محمد حسن
٢٥	على ضفاف دجلة والفرات	للأستاذ طاهر الطناحى
٢٥	الأمير حيدر	للأستاذ ابراهيم جلال بك
٢٠	عالم الغد	تعريب الأستاذين حافظ جلال وعبد الحميد يونس
٢٠	تونس الخضراء	للجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية
١٥	مصر والشام فى الغابر والحاضر	للدكتور أسعد طلس
٢٠	التعاون الدولى والسلام العام	للأستاذ محمد رفعت بك
١٥	نحو الوحدة العربية	للدكتور يوسف هيكل
٢٠	عصب الحرب	للأستاذ فؤاد شبل
٢٥	أمريكا الضاحكة	للأستاذ مصطفى أمين يوسف بك

ص		
٢٠	حمارى قال لى	للاستاذ توفيق الحكيم
٢٠	الأزمات الزوجية وعلاجها	للدكتور محمد زكى شافعى بك
٢٠	العلم فى الحرب	للأستاذ أمين ابراهيم كحيل بك
٣٠	مشكلات الأطفال اليومية	للأستاذ إسحق رمزى
٣٠	التربية البدنية	للأستاذ محمد كامل علوى
١٠	الأخـــلاق	للمرحوم عبد الرحمن زغلول
٢٥	ثورة فى البرج العاجى	للأستاذة منيرة ثابت
٢٥	ماذا فى السودان	للأستاذ جلال الدين الحمامصى
٢٠	تأملات	بقلم لطفى السيد باشا
٢٠	قصص روسية	للمرحوم محمد السباعى

انتهت القائمة